فاطمة المرنيسي ــ مليكة البلغيثي

العائلة القروية المغربية
(مواقف من التقليد والحداثة)

تقديم مشترك : العائلة القروية والتغير الاجتماعي

1 ــ الإشكالية وأهميتها بالنسبة لقضية التراث ودوره في تشييد المستقبل :

في الوقت الذي تكتسح فيه قضية التراث، ودوره في بناء المجتمع الجديد، ساحة المفكرين بمافيهم المثقفين والمخططين يصبح من الضروري القيام بمبادرات ولو متواضعة، **للتعرف على موقف الفئات المحكوم عليها بالصمت إلى حد الآن، والتي لا تشارك بإعطاء آرائها في تشييد المجتمع الجديد. ألا وهي الفئات القروية** بمن فيها من الرجال والنساء والمراهقين من الجنسين. ما هو موقف العائلة القروية من قضية التقليد والحداثة ؟ هل تُجسد مسألة التغيير أمراً ملحاً ومركزيا في حياة العائلة الفلاحية أم أن هذه المسألة تعاش كقضية هامشية وثانوية ؟ هل العائلة الفلاحية متشبثة بالتقاليد وتسعى من أجل ترسيخها واثباتها وتوارثها من جيل الآباء إلى الأبناء أم أنها بالعكس تسعى إلى تمزيق هذه التقاليد والتخلص منها ؟. ومن خلال بحث ميداني مبني على تقنية « دراسة الحالة » ــ ولا يطعن في الطابع العلمي لهذه التقنية إلا جاهل بتقدم المناهج العلمية وتطورها ــ يظهر أن للعائلة القروية التي يدور حولها البحث موقفاً واضحاً وصارماً إزاء التغيير : إنه يجسد لديها محور المشاكل التي تعيشها يوميا، وتسعى إلى هذا التغيير الذي يشكل الحلّ الوحيد للمشاكل التي تتخبط فيها، وهي ترى بأن هذا التغيير يرتكز على دعامتين هما :

ــ تبني التكنولوجية تبنيا موازيا لحاجياتها

ــ تدخل دولة يهدف أن تضمن سياستُها الحق في التعليم وفي ثروات البلاد لكل مواطن ومواطنة. **وقد أظهر البحث بالتالي أن للعائلة القروية موقفا معاديا للتقاليد التي يجسدها أسلوب عيشها الحالي، المتمثل في حرمانها من التكنولوجيا وفوائدها،** فيما يخص التجهيز السكني (الماء الملوث، الطرق الغير المعبدة، انعدام الكهرباء... الخ) والتغطية الصحية (بُعد الوحدات الصحية وتقلص دورها) والهياكل التعليمية (إجهاض دور المدرسة وعقمها فيما يخص تكوين أجيال قروية، تلعب دوراً في تقرير مصير الجماعات القروية).

ونظراً لأهمية خلاصات هذا البحث بالنسبة لكل من يدرس قضية التراث والتغيير، **قررنا أن نقدم فيمايلي موجزاً لأهم نقاطه بما فيها دور البحث العلمي وقيوده السياسية والايديولوجية في تشييد مجتمع جديد مبني على تعدد الخطابات، لا توحيدها العشوائي الذي يجسد في حدّ ذاته السيرورة السلطوية المعادية لروح الديموقراطية.**

سنبدأ أولا بتقديم إطار البحث ومن خلاله إبراز قيود البحث العلمي الذي يتطلب مصاريف تفوق المجهود الفردي وتجعل من كل مُمَوِّل للبحث عنصراً حاسماً في تحديد مناهج البحث وتقديم النتائج. فمن خلال الاختلافات التي قامت بيننا كباحثات مَحلّيات ومنظمة اليونسكو التي موّلت البحث، نريد الإشارة إلى بعض الخلفيات الايديولوجية لهذا الأخير :

1 ـــ هناك دائما تناقض بنيوي بين مُمَوِّل البحث والباحث. ولو عوضنا اليونسكو كمُمَوِّل بوزارة الفلاحة أو الصحة، لبقيَ تناقضنا هذا قائماً، إلا أن نوعية القوى المتواجدة تختلف إذا كان المموِّل هيئة دولية أو محلية. فكون البحث مُمَوَّلًا من طرف هيئة محلية لا يقلِّص في شيء من طابعه الطبقي ومن التناقضات بين مموّل البحث والمبحوث. ولو قمنا ببحث مماثل مموَّل من طرف وزارة ما، لكان الصراع بيننا وبين هذه الوزارة، مشابها للصراع الذي عشناه مع منظمة اليونسكو، ولاسيما فيما يخص تفضيل التقنيات الكمية (الاستمارة، المقابلات القصيرة) عن التقنيات الكيفية (المقابلة المعمقة).

2 ـــ لهذا يجب على الباحث الذي يجد نفسه كمنتج فكري مندمج في دينامكية طبقية، تفرضها طبيعة البحث العلمي في إطار رأسمالي توضيح موقعه، وتوضيح موقفه من الطرفين وتحديد دوره في سيرورة البحث وتقديم النتائج واستثمارها. فمثلا هناك فرق شاسع بين البحث الذي كتبناه، وهو يحتوي على 224 صفحة وبين 34 صفحة التي ظهرت منه في مطبوع اليونسكو، فلهذا قررنا تقديم نتائج هذا البحث للقارىء المغربي بالتركيز على أهم النتائج بالنسبة لنا، ألا وهي موقف الفلاح إزاء التقليد والحداثة.

2 ـــ الخلفيات الايديولوجية للبحث العلمي : الصراع حول المنهج وكيفية تحرير وتقديم النتائج

أجرينا في سنة 1979 مقابلات مع سكان جماعتين قرويتين وذلك في إطار بحث مقارن، قامت به اليونسكو في عدد من البلدان منها المغرب[1]. **وكان هدف بحث اليونسكو ضيقا جداً، حيث كان يسعى إلى فهم مواقف العائلة القروية إزاء مشكلة تزايد السكان،** فرفضنا تقييد مبادرتنا بهذا الهدف وأقنعنا منظمي البحث أنه من الأجدى توسيع الاشكالية على الأقل فيما يخص المغرب **لتشمل قضية أعم، وهي موقف العائلة القروية إزاء التغيير بصفة عامة، سواء أكان هذا التغيير اقتصاديا أو اجتماعيا.**

كان هناك مشكل آخر حول تصورنا للبحث وتصور مجموعة اليونسكو، وذلك فيما يخص المنهج، ولا سيما تقنية البحث. كانت اليونسكو تحبذ استعمال الاستمارة والمقابلة القصيرة (L'entretien) وكنا مقتنعين بأن أحسن التقنيات لإعطاء فرصة لمبحوث أمّي للتعبير عما

يجول في خاطره من أفكار وأحلام وطموحات، هي المقابلة المعمقة (L'interview en profondeur) التي تحوّل الباحث إلى مجرّد آلة مُسجِّلة، لأن البحث يهدف إلى الحصول على معلومات كيفية لا كمية تبيِّن مواقف العائلة القروية إزاء التغيير وبالتالي لا يهدف إلى التمثيلية (la representativité) أو التعميم (la généralisation). وقد حصل اتفاق بيننا وبين منظمة اليونسكو على استعمال المقابلة المعمقة كتقنية أساسية لجمع المعلومات. فقامت كل واحدة منا خلال خمسة أشهر، بثلاثين مقابلة معمقة، وعدد أكبر من المقابلات القصيرة مع سكان الدواوير المبحوثة من جهة (مقابلات فردية مع الأمهات والآباء والأبناء في سن المراهقة، تمت داخل المنازل، ثم مقابلات جماعية خارجية) ومن جهة أخرى مع العناصر التقنية (المعلم، الطبيب أو الممرض، والمهندس) والادارة (القايد، الشيخ).

وبعد إجراء المقابلات مع هذه الفئات تبلورت لدينا حقيقة أدّت إلى نقاش حاد بيننا وبين باحثي اليونسكو الذين كانوا يسهرون على تنسيق المعطيات بين طانزانيا وروواندا والبيرو والمغرب حتى تصبح قابلة للمقارنة. **ذلك أنه توضّح لنا أن خطاب الفلاح يختلف كل الاختلاف** (إن لم يكن عكسه) **عن خطاب التقنيين والاداريين، باستثناء المعلم.** وكان النقاش مع مجموعة التنسيق حول نقطة تقديم المعلومات. كانت مجموعة اليونسكو تفضل أن تقدَّم نتائج البحث حسب المواضيع (الصحة، التعليم، التجهيز المعماري الخ...) وذلك حتى يسهل عمل التنسيق بين الباحثين في مختلف البلدان. وكنا نحن نفضل تقديم نتائج البحث حسب الخطابات (خطاب الفلاح، خطاب تقني الصحة : الطبيب والممرض والمولدة، خطاب الاداريين : القايد والشيخ، خطاب تقنيي الفلاحة : عناصر وزارة الفلاحة وموظفيها)، لأن أهم النتائج التي وضّحها هذا البحث الكميّ أثبتت أنه من الأخطاء الاستراتيجية مواجهة المجتمع القروي كمجتمع متجانس ومنسجم الوحدات، فحسب بحثنا المتواضع في مداه (وذلك لأنه مجرد دراسة حَالَةٍ) ولكن العلمي في بنيانه ونتائجه (لأن الحالات المدروسة وحدات مغربية مغروسة في واقعنا القروي تعكس تياراته وصراعاته في خصوصيتها)، **فإنه ليس هناك مجتمعٌ قرويٌ متجانسٌ، بل هناك مجتمعات قروية متضاربة يسود علاقاتها التوتر الناتج عن ديناميكية طبقية حادة.** ويتجسد هذا التقسيم في خطابات متناقضة ومتضاربة، **فلكل وحدة تركيبية بالعالم القروي خطاب خاص بها يعكس نظرة وفلسفة خاصة، ولا سيما فيما يخص مسؤولية الأطراف المتواجدة في المشاكل التي يتخبط فيها هذا المجتمع.** بالنسبة لخطاب التقنيين المسؤولين عن السياسة « التنموية » الفلاحية والصحية، فإن مسؤولية فشل هذه السياسة ترجع إلى الفلاح وعدم انفتاحه على التغيير وسلوكه التقليدي المتجمد الخ... أما في خطاب الفلاح فإن المسؤول عن فشل المشاريع التنموية هي الهيئات التقنية التي تتجاهل حسب الفلاح آماله وطموحاته وتجربته وآراءه. وتوضح لنا منهجيا أن أهم النتائج هو هذا التضارب الحاد بين خطابات العناصر المركّبة للمجتمع القروي، وأن كل محاولة لدمج خطاب الفلاح بخطاب التقني أو الإداري (إذا تناولناه حسب المواضيع كما ارتأت اليونسكو) تشكل مساً بالنتائج وتحريفا للواقع كما عكسه البحث. فحصل الاتفاق على أننا سنقدم نتائج البحث حسب الخطابات، وأن على اللجنة المنسقة للبحث في هيئة اليونسكو أن تقوم بعدنا اعادة

كتابة النص المغربي حتى يصبح قابلا للمقارنة مع نصوص الباحثين في الدول الثلاث الأخرى المشار إليها. **لهذا قررنا أن نقدم للقارىء المغربي أهم خلاصات هذا البحث بالتركيز على خطاب نادراً ما ننصت إليه، ألا وهو خطاب العائلة القروية بمن فيها من الرجال والنساء والمراهقين.**

خلاصة عامة للبحث : محتوى مفهوم التغيير لدى العائلة الفلاحية : القطيعة كمرحلة ضرورية.

الخلاصة العامة للبحث هي أن الفلاح يرفض أسلوب عيشه التقليدي، ويرغب في تغيير جذري في علاقته مع محيطه المادي والاجتماعي. إنَّ القطيعة (La rupture) في رأي العائلة الفلاحية أيا كان جنس عناصرها وأيا كانت أجيالها، مرحلة ضرورية لضمان عيش أحسن بالنسبة للجميع. فالتقاليد التي تتحكم في علاقتهم بالبيئة الطبيعية والاجتماعية أصبحت سلبية في نظرهم، ولا تضمن لهم حق التفاؤل بالمستقبل. بالنسبة للفلاح وللفلاّحة فإن حلّ المشاكل يتمحور حول ركيزتين : **استيعاب التكنولوجيا وتدخل الدولة**، ولكل من هذين المفهومين معانٍ محدَّدة لديهم تتجلى في مؤشرات مضبوطة. مفهوم العائلة الفلاحية للتكنولوجيا مفهوم خاص يتنافى كل التنافي مع مفهوم التقنيين، فبينما تتجاهل مجهوداتُ السياسة التنموية التجهيزَ الاجتماعي (السكنى، الصحة، مجال التكوين) فإن الفلاح يعطيها الأولوية. أما نظرة الفلاح إلى دور الدولة في فتح آفاق جديدة، فهي نظرة ديناميكية تجسد في حدّ ذاتها قطيعة بالنسبة لمفهوم « المخزن ». **حيث أن العائلة الفلاحية ترى في الدولة قوة جبارة تتحكم في جميع مجالات الحياة : وهي تدرك بأن هذه القوة الجبارة ومن يُجسّدُها من التقنيين والاداريين، لا تخدم حاليا مصالح الجماهير الفلاحية وتعتقد بأنه من المفروض أن تصبح مسخرة لخدمة مصالح الجميع. ويظهر حسب نتائج هذا البحث أن الفلاح تجاوز مفهوم المخزن التقليدي للطموح إلى مفهوم دولة عصرية تحاكي دولة الرخاء في التصور الرأسمالي، ومفهوم الدولة البروليتارية في التصور الاشتراكي.**

1 ــ مفهوم التكنولوجيا ودورها كمحور للتغير الاجتماعي عند العائلة الفلاحية : القطيعة الثقافية.

أكد هذا البحث أن ذلك الفلاح المنغلق أمام التغيرات، المفصول عن حركة التقدم الدائبة، والمرتاع منها، أسطورة لا توجد إلا في عقل أولئك الذين لا دراية لهم بالعالم الفلاحي، أو الذين لا زالوا يرفضون منحه هذا الانفتاح، بسبب أحكام طبقية مسبقة : وينطبق الأمر بالخصوص على التقنوقراطيين الذين يحاولون تفسير فشل مشاريعهم التنموية بعوامل سيكولوجية، مثل العقلية المتأخرة للفلاح ورفضه للتغيير. ذلك أن المقابلات المسجّلة لا تبرهن على أن الفلاح متفتح تجاه التغيرات فحسب بل إنه يطالب بها.

ولهذا يجب توضيح خاصية متميزة، تتعلق بتطور موقف الفلاح إزاء التقليد، الذي تحوّل بكيفية جذرية أثناء مرحلة الاستقلال. فخلال فترة الاستعمار، كان التعلق بالتقليد من طرف

الفلاح، هو الوسيلة الوحيدة للدفاع عن ذاته ضد الاغتصاب الاستعماري الذي كان يتمظهر بالخصوص من خلال زرع بنية تحتية تكنولوجية واستعمال المعرفة العلمية المُحتكرة من طرف المعمرين، والتي كان الفلاح مُبْعَداً عنها. وقد شكل الاستقلال، قطيعة مع هذه الوضعية، فالتكنولوجيا والمعرفة العلمية لم يعودَا رمزين وامتيازين للعنصر الأجنبي الاستعماري، بل أصبحا حقا لكل مواطن ورغبة مشروعة، وخاصة لدى الفئات المسحوقة المبعدة عن الحكم واتخاذ القرارات، وأصبح الفلاح يرى يوميا مواطنينَ مغاربة يتحكمون فيه وفي قراراته لمجرد كونهم حاملين لشهادات أولا، ومنتمين لمؤسسات الدولة ثانيا (نعني بذلك التقنوقراطيين بما فيهم كوادر وزارة الفلاحة والداخلية والصحة والتعليم ــ الخ...). ولن نفهم شيئا من الآمال التي تراود طبقة الفلاحين إذا لم نأخذ بعين الاعتبار، أن التمدرس **بالنسبة لهم يشكل الوسيلة الوحيدة التي تمكّنهم وتمكّن أبناءهم من ولوج أبواب العالم الحديث وعصرنته المُغرِيَة.**

فحسب الاستجوابات المعمقة نرى أن الفلاح يرفض التقليد الذي يساوي بالنسبة له أسلوب عيشه الحالي. حيث أن هناك أسلوبين للحياة في رأيه : أسلوب من لم ينهج طريق الحداثة ولم ينعم برفاهيتها وهو أسلوب عيش أهل القرى ؛ وأسلوب من جنى مكتسبات الحداثة وتدفقت عليه خيراتها وهو أسلوب حياة أهل المدن :

« لعبو اغْلينا أمّالين المْدينَة، مْخلّيينَا ايْحَالْ الحيوان، لامدرسة لاطبيب لاماء الِقِي لاكهرباء. عيشتنا مَرَّة، مَاكَلْتْنا مكرفسة ونعاسنا مكرفس. إلَا فاض الواد كيْغَرَّقْنَا فالغيسْ، وإلَا جات الحرارة كَتْبْشَوْطُو اخْنَا وولادنا. لامسكن مزيان لاخدمة مزيانة. كَنْشَرْفُو قبل الوقت، ماعندنا فَشْنَقْبَطْ، حتى المستقبل عَيَّانْ. ولادنا مطلوقين بلاقراية ومنين يقلبُو على خدمة مايلقاوها. امّالين المدينة ماخصهُمْ خير، السينمات، المدارس، السبيطارات، الضوء، الماء في الرُّوبيني، الخدمة مع المخزن، عَبْرِين علينا امّالين المدينة حياتنا خسارة ».

فلاح له 35 سنة، وبقعة أرض ذات مساحة أقل من هكتارين ــ
يشتغل كعامل زراعي موسمي بعض الأحيان ــ له 4 أطفال.

فالتقليد حسب الخطاب الفَلّاحي(*) (Le discours paysan) **هو البؤس والمرض والأمية، والحداثة هي تغيير هذا الأسلوب والولوج إلى عالم الكهرباء والبنيسلين والمدرسة والعلم والتكوين والاعلام.** إن الفلاح يتطلّع إلى العصرنة كسبيل إلى تحقيق حلم الرخاء والعيش الرغيد. من أين للفلاح هذه التطلعات إلى حياة أفضل ؟ كانت هذه إحدى النقاط التي حاولنا توضيحها. من أين للفلاح بهذه النظرة المتفائلة إلى العالم وإمكاناته ؟ في عدد كبير من المقابلات برزت خطابات المسؤولين بما فيها الخطابات المباشرة (في المواسم والأعياد والمناسبات المحلية) أو غير المباشرة (المنقولة عبر الراديو والتلفزة) كمنبع أساسي للتصورات المتفائلة التي يحملها [illegible]

« [illegible] درس كيوعْدنَا القايد، المهندس، الطبيب، الّلي عايش معانا والّلِي عِزَايْز ودايز على الطريق حتى هو يوقف ويواعدنا بالمشارع. أوْدّي وْكَانْ غير مَاكانْاغْدُنَاْ، مايبقاش الواحد كيتمنّى. مقبناش كَنْرْضَاوْ بالمعيشة ديالنا ».

[illegible]ح في سن الخمسين، يملك اربعة هكتارات وله اربعة اطفال.

سنرى فيما بعد أن التفاؤل بحياة أفضل والإيمان بمستقبل يسوده الرخاء، فكرة جديدة في مجتمعنا حيث تُجسّد قطيعة مع مفهوم « المكتوب » التقليدي. **فمن ثمرات الاستقلال، ما نلاحظه من أن شعارات الطبقة الوطنية (قيادة الحركة الوطنية) المسؤولة عن بناء مغرب عصري يعمّه الرخاء، غدت رغبات مشروعة وملحة لدى الفئات المبعدة عن الحداثة والرخاء**، وقد تبين من خلال الاستجوابات أن ليس هناك عائلة فقيرة تَنْشُدُ الماضي وتتغنى بالتقاليد، معتبرة إياها مثلا أعلى لبنيان الآفاق الجديدة وتشييد المستقبل. هذا على العكس من خطاب التقنوقراطيين، الذي يجعل من انغلاق الفلاح عن مبادرات التغيير، عرقلة من العراقيل الأساسية في وجه السياسة التنموية. والفلاح بهذا التصور لا وجود له في هذا الخطاب. أما في الواقع كما يصفه الفلاح، فتمثل الحداثة والتغيير، الآمال المنشودة والمحرّك الأساسي، أفكار هذا الأخير وأعماله واختياراته وقراراته. ويتجسّد الموقف المتفائل من الحداثة في نظرة الفلاح الخاصة إلى التكنولوجيا ودورها، في أن له تصوّراً واضحا عن التكنولوجيا التي من شأنها أن تحوّل حياته إلى نعيم وهو يراها مسخرة لخدمته وإرضاء حاجياته، هذا على خلاف التصور الذي يحمله عن التكنولوجيا مخططو أنماط السياسة التنموية التي نهجتها بلدان العالم الثالث في الستينات والسبعينات، حيث تجاهلوا البعد الاجتماعي للتكنولوجيا (تسخيرها للتجهيز في مجال السكن والصحة والتعليم والتكوين...) مركّزين على الاستثمارات الاقتصادية الصرفة (مشاريع السدود الكبرى، مشاريع استيراد الآلات...).

الاعتقاد بالقوة الخارقة للتكنولوجيا : التلفزة كأداة للتعلم والانفلات من الأمية والعزلة.

من الأفكار التي تُستنبطُ من الخطاب الفَلّاحِي، هي أن التكنولوجيا يمكنها معالجة جميع الأمور، بإمكانها تحويل المحيط وتطهيره، وجعله يانعا مثمراً، بإمكانها مضاعفة قدرة الفلاح على الانتاج. إن الإيمان المطلق بتكنولوجيا سحرية، فكرة تؤثر عميقا على تصورات الفلاح لمستقبله، وتعطي للخطاب الفلّاحي نبرة مدهشة من التفاؤل، تتجلى في مبالغة الفلاح في التشكّي والتذمّر. ويجب الرجوع إلى الأبحاث وخاصة المتعلقة بالصحة والتعليم لتقويم الأثر الحاسم لهذا الاعتقاد وتشعباته على مستوى السلوك. وسنكتفي هنا بالتذكير بأن هذا الإيمان بالتكنولوجيا يتمظهر عبر مركّب للاحساس بالدونية شديد الحدّة تجاه المتعلمين، وعبر تعطش ال علم، تعطش للاطلاع فيما يتعلق بالتكنولوجيا القابلة للاستعمال فوراً على صعيد الحياة اليومية، والرغبة الجامحة في امتلاك جهاز تلفزيون (حتى ولو لم تكن الكهرباء متوفرة) هي مظهر لهذا التوق. فالتلفاز يدرك من طرف الكبار كأداة للتكوين والتعلم وللاطلاع والتعرّف، ولمحاولة تعويض التأخر المتراكم فيما يتعلق بالمعارف. إنه يدرك كأداة لتجنّب لعنتين مرتبطتين بحياتهم القروية : الأمية والعزلة.

إن وسائل الاعلام الجماهيري كاداة للاتصال مع الخارج، مع الحداثة، مع التكنولوجيا، أصبحت ذات أهمية كبرى بالنسبة للعائلة الفلاحية، ففي دوار بكارة الغير متوفر على الكهرباء يجسد اكتساب التلفزة رمزاً لقدرة العائلة على دخول عالم الحداثة، ومغادرتها العزلة عمّا يروج في العالم.

« إنني أفضّل حرمان ابنائي وزوجتي من الخبز وشراء البّاتْري للتلفزة. بالنسبة لي أصبحت التلفزة ضرورية للانسان، وإلا فإنه يعيش في انعزال يُشبه انعزال الحيوان، فالتلفزة تلعب بالنسبة لي ولزوجتي دور المدرسة التي كانت مسدودة في وجهنا ». هكذا يتكلم رب عائلة من دوار بكارة، عمره 30 سنة وله أربعة أطفال، أكبرهم في المدرسة، والآخرون في الكُتّاب.

وبالطبع تختلف العلاقة مع التلفزة في دوار سيدي عدّي، الذي تعمُّه اللغة البربرية. حيث يُلمس احساس حادٌّ بالحرمان، تجاه التلفزة التي لا تستعمل إلا العربية أو الفرنسية، ومدى هذا الاحساس بالحرمان مُوازٍ لمدى الانبهار بوسائل الاتصال الجماهيري.

وكخلاصة لهذه النقطة يمكننا القول بأن العائلة الفلاحية قد اتجهت دفعة واحدة إلى الديناميكية، وإلى مستقبل يضمن الرخاء للكلّ باستعمال تكنولوجية حديثة والإيمان بدولة حديثة قادرة على تحقيق حلم الرخاء وتغيير الفقر والخمول والانعزال، وهي مفاهيم تربطها هذه العائلة بمفهوم الماضي والتقليد.

2 ــ مفهوم الدولة ودورها كمحور للتغير الاجتماعي عند العائلة الفلاحية : القطيعة السياسية.

من الأفكار الجديدة التي تتبناها العائلة القروية الفقيرة، هي أن الدولة تلعب دوراً حاسماً في تغيير الأوضاع الاجتماعية من جهة، وأن تحسين وضعية العائلة الفقيرة قرار سياسي تنفرد به الدولة من جهة ثانية. إن هذه الرؤية تجسّد قطيعة بالنسبة لمفهوم « المخزن » التقليدي، وهو مفهوم سلبي في تراثنا الوطني(2).

فالتفقير المتزايد الذي تعانيه العائلة الفلاحية، ولا سيما التقلص المستمر للملكية الأرض التي تتحكم فيها العائلة، أدّى بهذه الأخيرة الى الاقتناع بأن حَلَّ هذا المشكل، أي تحسين المستوى المعاشي، ليس في متناول الفرد بل بيد الدولة. وإذا كانت العائلة الفلاحية لا زالت ترغب في الملكية الخاصة للأرض، وهو مطلب وطموح فرداني (individualiste)، فإنها في نفس الوقت تدرك أن استغلال الارض استغلالا إيجابيا يستحيل دون تدخل الدولة وامتداد إعانتها للافراد، وتدخل الدولة هذا يكتسي هنا طابعاً سياسيا صرفاً.

يمكن القول أن هناك جانبين لهذا التصور الجديد للدولة. جانب تقليدي، وهو الاعتقاد في الدولة الجبارة التي تتسم بقوة شبه سحرية، وجانب عصري، وهو مفهوم دولة الرخاء (wellfare state). وهذا الجانب يجسّد في نظرنا قطيعة مع المفهوم التقليدي للمخزن. كما أن له أهمية قصوى في الحياة السياسية، حيث تتبلور فيه ديناميكية الشعب المُبعد عن القرار لأنه أصبح الآن يطمح إلى دولة مسخَّرة لحاجياته. **وعلى عكس التحليلات التي تقدم تصورات الفئات الفقيرة إلى دولة قادرة على سدّ كل الحاجيات كتصوّرات سلبية، لأنها تبرز نزعات الاتكالية والابتعاد عن المسؤولية، فإننا نحلّل هذا التعطّش إلى دولة تضمن الرخاء كتصور جد عصري، لأنه يبرز وعي الفلاح بمقولتين أساسيتين :**

1 ــ الدولة العصرية قوة جبارة في بلدان العالم الثالث.

2 ــ هذه القوة يمكن أن تكون مسخّرة لخدمة فئات معينة، والفقير يطمح إلى أن تصبح مسخّرة له ولحاجياته.

وسنتطرق لتصور العائلة الفلاحية للدولة، ودورها من خلال تحليل موقف الفلاح إزاء مشكلة تزايد السكان، أي العلاقة بين الطبيعة والانسان، وذلك لتوضيح بعض الالتباسات والاتهامات التي تُوَجَّهُ للفلاح، ولا سيما ما يتعلق بكونه ذا نزعة توالدية (Pro-Nataliste) وعدم وعيه بضغط تزايد السكان على فرص تحسين المعيشة.

ــ موقف الفلاح إزاء تزايد السكان وأبعاده السياسية والاقتصادية :

كان السؤال هنا هو : هل هناك علاقة بين تحليل الفلاح لقضية تزايد السكان وتصوُّره للدولة ودورها ؟ هل يدرك الفلاح أن فرص تحسين معيشة أبنائه لها ارتباط بعددهم أم لا ؟ إذا كان الفلاح واعيا بالعلاقة الموجودة بين تزايد السكان وتقلص بقعة الأرض فلماذا لم يتخذ موقفا صارماً إزاء التخطيط العائلي ؟ ومن هو يا ترى المسؤول في نظره عن مصير أطفاله ؟ ثم هل الموقف التوالدي للفلاح ناتج عن جهله وأميته، أم أنه موقف سياسي واع وعقلاني إذا وضع في إطار صراع الطبقات ؟.

مسلمة الفلاح المستلب :

إن المنزلق الكبير الذي يسقط فيه عدد هام من التحاليل حول المسلكية الديموغرافية داخل الطبقة الفقيرة، هو اتهام رب أسرة فقيرة له ثمانية أطفال بانعدام الوعي وباللاعقلانية. **فحسب هذا التفسير، لو استطاع المواطن الفقير أن يُقوِّم عقلانيا وضعيته لَقَلَّلَ عدد أطفاله، لكي يُحَسِّن مستوى عيش العائلة كلّها، إلا أن هذا النوع من الاستدلال خاطىء، لأنه لا يأخذ بالاعتبار السياق الاقتصادي الذي تقع فيه عملية التقرير الديموغرافي هاته. هذه البرهنة (إذا خفضنا عدد الأطفال، فَسَنُنَمّي وفرة المصادر العيشية) ليست حقيقية إلا في السياق الذي يُدرِك فيه الفَرد نفْسه كعنصر حي ونشيط داخل رخاء اجتماعي عام ودائب.** السياق الذي يعرف عبره أن العنصر الوحيد الذي بإمكانه فك خناق وضعية التقهقر المستمر التي يعانيها الآن، هو البلوغ إلى نمط مغاير للعيش. **وهذا النمط الجديد محوره قرار الدولة لا قرار الفرد.** وهو في نظرنا غير خاطىء في تحليله. إن الفلاح يحلم بأسلوب جديد للحياة، مخالف تماما للأسلوب التقليدي، يحلم بأبناء مندمجين في الحياة العصرية، حاملين لشهادات مدرسية تبرهن على / وتجسِّد كفاءاتهم، ومُشَغَّلين من طرف دولة غنية تتحكم في ثروات البلاد وتسهر على توزيعها بعدل. والفلاح مقتنع بوجود قطيعة بين أسلوبين للحياة، أسلوب قديم بائد وأسلوب جديد ألْيَق وأحسن، إلا أنه مقتنع كذلك بأن تحقيقه للأسلوب الجديد لا يرتبط بخياره وإرادته فقط، بل بإرادة الدولة كذلك. إن الفلاح يعرف جيداً أنه لا يضمن وصوله ووصول عائلته إلى المدرسة والمستشفى بمجرّد تخفيض عدد أطفاله، هذا الوصول يتوقف، بالنسبة له، على سلطة خارجة عن إرادة العائلة، وهي تدخُّل الدولة. **إن الفلاحين المبحوثين يلمسون ازدياد تقهقر ظروف عيشهم. فاستحالة الوصول إلى المدرسة وشهاداتها يُعاش كرمز لهذا الإبعاد من حظوظ الارتقاء، والأطفال، ذكوراً**

وإناثاً، في هذا التصور، لا يتدخلون نهائيا كعوامل للارتقاء، بل يُعتبرون فقط كمستودع لليد العاملة من جهة وكأدوات لتقوية الحق في الأرض من جهة أخرى. الفلاح الغرباوي مثلا، يعي أنه يلعب وهو خاسر مسبقا، لكنه يعرف بأنه محاصر داخل دور الخاسر في جميع الحالات.

إن الضغط الديموغرافي موجود، لكن عِلّته بالنسبة للفلاح ليست من طبيعة ديموغرافية فقط، بل هي من طبيعة **اقتصادية وسياسية كذلك. فعلى أساس الوظيفة التي للأرض يطرح المشكل العميق للعلاقة « بين السكان والموارد »**. ويستشعر الفلاحون الضغط الديموغرافي بشكل قوي، فهم يلمسون تقلص الأرض التي يملكها الفرد، وبالتالي، فعدد السكان بالعلاقة مع المساحة، ينمو بكيفية غير مضبوطة. لكن هذه القطيعة في التوازن سكان ــ موارد، سكان ــ أراضي ليست ناتجة عن علة ديموغرافية (انخفاض الوفيات أو تكاثر نسبة التوالد فقط) وإنما ناتجة عن سبب تاريخي واقتصادي. وأخيرا تجسّد مساحة الأرض التي تتحكم فيها العائلة، عاملا ديموغرافيا ثقيل الوزن. حيث يكتسب الموقف التوالدي حدة وإيقاعا عميقين، مع تقلص بقعة الأرض التي تتوارثها العائلة، ويمثل دوار بكارة حالة قصوى لهذه الظاهرة، حيث يتسم الفلاح المتوسط والكبير (أي الذي له بقعة أرض تفوق 20 هكتار غير مسقية) بموقف صارم إزاء حجم العائلة، وهدفه المنشود هو الحجم الصغير. أما الفلاح الصغير الذي لا تزيد مساحة أرضه على ثلاث هكتارات، فهدفه هو التكثير من الأطفال وتوسيع حجم عائلته. **بالنسبة لصغار الفلاحين في بكارة يُدرك الطفل كعنصر ذي مردودية، حتى ولو لم يكن متعلما، وحتى لو كان عاطلا ولا إمكانية لديه للحصول على الأرض في الظروف القائمة. ذلك لأن هذا الفلاح ينظر إلى عدد أطفاله كوسيلة لتحقيق مطالبه السياسية، أي إرغام الدولة في المدى البعيد على إرجاع الأراضي التي سبق أن نزعها المستعمر من القبيلة والتي توجد الآن في يد الفلاح المغربي الكبير، إلى أهلها « الشرعيين » أي أبناء القبيلة.**

وبخلاصة هذه الفكرة يمكننا أن نقول إن سلوك الفلاح الفقير وموقفه من ضبط حجم العائلة، هو سلوك مبني على تحليله الخاص لوضعيته وعلى وعي منبثق من تأويله للقوى الاجتماعية المتواجدة (الملاكين الكبار القاطنين بالمدن، الدولة وممثليها ومؤسساتها، الملاكين المتوسطين ...الخ) التي تؤثر في مجرى حياته. **من هنا يظهر أن الموقف التوالدي والإرادة في التكثير من عدد الأطفال ليس بموقف لا عقلاني من طرف الفلاح الصغير، بل على العكس تماما، إنه موقف في منتهى العقلانية من منظوره الطبقي الخاص.**

هذا فيما يخص الوعي كعنصر محدِّد للمسلكية الديموغرافية، لكن هناك عناصر أخرى مادية تتحكم في هذا السلوك، ألا وهو العجز في التغطية الصحية بالنسبة لمن لا يتوفر على وسائل النقل مثلا، أي الجانب الطبقي للانتفاع « بالمصلحة العامة ».

• مسلمة « المصلحة العامة » : تأثير العامل الطبقي على المسلكية الديموغرافية :

من مسلمات الدولة المغربية الجديدة التي برزت بعد الفترة الاستعمارية، هي أنها تستثمر

جهودها في « مصالح عامة » أي مسخرة لجميع المواطنين على حدّ سواء كالصحة والتعليم مثلا. **ولكننا حين ننكب على التحليل الميكروسوسيولوجي (Micro-Sociologique) لهذه المسلّمة، يتضح لنا أن هذه المصالح التي تهدف إلى خدمة الصالح العام يتعثر تحقيق هدفها بديناميكية الطبقات الاجتماعية المتواجدة في البلاد.** فبعض الطبقات تنجح في تسخير هذه « المصالح العامة » مبدئيا لخدمة « مصالحها الخاصة ». ومن مشاكل العالم الثالث، عجز « المصلحة العامة » المموَّلة من طرف الدولة عن تحقيق هدفها العام، حيث يتطلب تعميم المصالح وفوائدها، حدّاً أدنى من الإمكانات لا يتوفر إلا لدى بعض الفئات. مثلا جل العائلات في بكارة تسعى إلى تخطيط الولادات، ولا سيما إلى ضبط المباعدة الزمنية بين كل ولادة وولادة. ولكن بالنسبة للعائلات الفقيرة يظل هذا المسعى على مستوى الحلم، لأن امكانية استفادتها من التغطية الصحية شبه مستحيلة. ففي دوار سيدي عدّي وفي دوّار بكارة، ترغب الكثير من النساء في تنظيم الولادات، لكنهن لا يستطعن تحقيق هذه الرغبة بسبب الخصاص والنقص في بنيات المصالح الطبية، مثلا استعمال موانع الحمل العصرية يتطلب الاستشارة مع الطبيب ومتابعته، لكن جل النساء يقمن بمبادرات عفوية دون الاستشارة مع الطبيب أو الممرض، وذلك لأن السعي إلى زيارة الطبيب يتطلب تكاليف هائلة فيما يخص الوقت والمال (ولا سيما وسائل النقل). لذلك تكتفي المرأة في غالب الأحيان باللجوء إلى استفسارات من طرف المكلف بالصيدلية أو من طرف عناصر غير مؤهلة (كالمعارف والصديقات والأزواج..الخ) أو تتراجع إلى استعمال الوسائل التقليدية، التي تعرف جداً ضعف فعاليتها. **وتجدر الإشارة هنا إلى تغير جدّ مُهم في الديناميكية الجنسية (Dynamique de Sexe) وهو أن الربط الذي نسارع إليه بين الحداثة والتقدم، هو ربط خاطىء أحيانا.** إن الحداثة كما تنعكس في حياة النساء بالدوارين المذكورين، فيما يخص مسؤولية تخطيط الولادات تجسّد إبعاداً عن بعض القرارات وتقهقراً فيما يخص تقرير المصير التناسلي.

- **مسلّمة ارتباط العصرنة بالتقدم : الديناميكية الجنسية في العالم القروي.**

إن تقرير المصير التناسلي (Le devenir reproductif) في مجتمعنا التقليدي كان بيد النساء. فقد كانت المرأة هي التي تقرر باستشارة مع نساء أخريات (الأم، الأخت، الجارة، الصديقة، القابلة الخ..) المباعدة الزمنية بين الولادات، وذلك باللجوء إلى وسائل تقليدية لمنع الحمل (العشوب مثلا) أو الاجهاض. **إلا أن ما نلاحظه من خلال هذه البحوث هو أن تقرير المصير التناسلي أصبح الآن تحت مراقبة الرجال (الأزواج، الأطباء، الممرضين).** وحالة (الغرب) هامة بهذا الصدد، حيث الرجال هنا أكثر اطلاعا من النساء على وجود القرص ومانع الحمل (المعقّم)، والموضوع متداول في أوساطهم بشكل عادي. كما أنهم هم الذين « يدبرون الأمر » لتزويد الزوجين بما يحتاجان إليه حين يقرران الإبعاد ما بين مدّة الولادات. أما النساء فمستسلمات، لما يتطلبه الوصول إلى المستشفى أو الصيدلية من إمكانيات مادية، **ويشكّل الحصول على وسائل منع الحمل العصرية بالنسبة لهن قطيعة، بالمقارنة مع ما تعودن عليه تقليديا من محاولات لتطبيق المباعدة بين فترات الحمل بوسائل شبه سحرية (الطقوس،**

الاحجبة، الأعشاب الخ..) وقد كان يُحتفى بهذه الطرائف التقليدية من طرف النساء، أما الوسائل العصرية، فتتطلب التمكّن من ثلاثة عوامل مساعِدة نادرة التوفر لديهن : المال، الحركية المكانية (mobilité spaciale)، ثم المعرفة بالتقنيات الفيزيولوجية للتوالد ولموانع الحمل.

من هنا تعقُّدُ العوامل التي تتدخل في هذه العملية، فكونُ النساء بالغرب، لا يسجّلن « التطور » إلا كضرورة للقيام بعمل منتظم وضعيف الأجر زيادة على العمل المنزلي المضني، لا يَحْمِلُهُنَّ أبداً على اتخاذ مواقف تضع موضع التساؤل علاقة الرجل بالمرأة داخل البيت، مثلما هو الحال في مدن الصفيح أو لدى البورجوازية الصغيرة. فكونهنَّ لم يتمكَّنَّ من فوائد الحداثة (المدرسة والمستشفى والتقنية..) أمرٌ يدفع بهن إلى المحافظة على موقف الامتثال التقليدي، على الأقل ظاهريا، والرجوع إلى الزوج فيما يتعلق بالتخطيط العائلي. هذا الأخير، كما ذكرنا ذلك، له دوافع أخرى تؤثر على موقفه، وبالخصوص رغبته في زيادة حظوظه من ارتفاع حصته في الأرض، بزيادة عدد الأطفال الذكور. من البديهي إذن أن المستشفى إذا كان مُتَقَبَّلاً من طرف النساء، وإذا كان سَيُحَرِّرُهُنَّ من وساطة الزوج، فإننا سنلاحظ مسلكية ديموغرافية مغايرة.

وسيكون من الهامّ جداً أن نستكشف في العمق، موقف النساء بالغرب، تجاه مردودية الأفراد. هل يتصورن الطفل الذكر له حقا نفس المردودية التي يعتقدها الرجل، الذي له كمقياس ودافع مطلبُ الحق في الأرض، أم لديهنَّ مقاييس وإطارات مرجعية أخرى ؟، كيفما كان الحال فإن **مفهوم مردودية الأطفال يشكّل مفهوماً محدّداً في المسلكية الديموغرافية**، ويستحق المزيد من الإيضاح، للتمكن من تجاوز التحاليل التبسيطية للوضعيات المعقدة كالتي نحن بصددها.

بالنسبة لموقف المرأة في جماعة آزرو، فإنه يظهر أكثر صرامة من موقف المرأة الغرباوية الفقيرة فيما يرتبط بموضوع تحديد الولادات، ويمكن تفسير ذلك بتاريخ العائلة في هذه الناحية، فالدور الاقتصادي للمرأة داخل العائلة الزراعية ــ الرعوية كان جوهريا، في الواقع وعلى مستوى الادراك النظري، وكان القسم الأساسي من الانتاج العائلي يتوقف عليها، لكنها في نفس الوقت كانت محرومة من الملكية ولم تحصل أبداً على الحق في الأرض. لذا كان لها دوماً موقف الثورة ضد المجتمع، هذا الموقف الذي كان يتمظهر، من جملة ما يتمظهر به، بممارسة لتحديد الولادات متقدمة وأكثر استقلالية من الممارسات عَيَّنها في مناطق أخرى من المغرب. وهكذا فإن الرغبة القوية والواضحة بل والارادة الملموسة لدى فلاحات آزرو، لتحديد الولادات (على عكس الغرباويات) لا يعبّر عن موقف جديد، وإنما عن استمرارية في المسلكية، إذا أخذنا تاريخ المنطقة وتطور العائلة الزراعية الرعوية بها، بعين الاعتبار.

• خاتمة بمثابة خلاصة عامة

قدمنا الفكرة الأساسية التي تعكسها المقابلات المعمقة والبحث الميداني، وهي أن العائلة الفلاحية، **ليست فقط قابلة للتغير، بل تنظر إليه كحلّ وحيد لمشاكلها**، وهذا التغير في

نظرنا له مضامين محددة، تتجسد في الإيمان بالتكنولوجيا والدولة كقوتين هائلتين، يمكن تسخيرهما لتحسين وضعية الفقير. وسنرى فيمايلي تفاصيل هذه الخلاصة من خلال دراسات مدققة لكل من الحالتين المدروستين : دوار بكارة في الغرب ودوار سيدي عدّي (آيت واحي) في منطقة آزرو. **وقد وقع الاختيار على هذه الدواوير، لأننا كنا نهدف إلى توضيح عامل أساسي في منظور العائلة القروية للتغيير، ألا وهو مدى تغلغل الرأسمالية.** فاختير دوار بكارة في منطقة الغرب لكون هذه المنطقة شاهدت منذ أوائل القرن استثماراً رأسماليا هائلا لم ينقطع بعد الاستقلال، على عكس دوار سيدي عدّي الذي لم يستفد خلال فترة الاستعمار وحتى الاستقلال إلا بقسط جدّ متواضع من الاستثمارات الرأسمالية. وكانت هناك عوامل أخرى دعمت هذا الاختيار منها العامل الجغرافي (الغرب : منطقة السهول، أزرو: منطقة جبلية) والعامل اللغوي (الغرب : العربية الدارجة، آزرو : اللغة البربرية) وأخيراً الظروف الشخصية لكلتا الباحثتين، كإمكانيات الحصول على الاحصائيات والوثائق الخ...

﴿ نظرة العائلة الفلاحية للتغيير : دراسة حالة دوار بكارة ﴾

أولا ــ تقديم عام لدوار بكارة

بكارة دوار من حجم متوسط يقع باقليم القنيطرة بشمال المغرب داخل المثلث المتكون من القنيطرة وطنجة ومكناس.

1 ــ معطيات ديموغرافية

إن مقارنة المعطيات الإحصائية الموجودة حول دوار بكارة والتي جهزتها هيآت مختلفة أبرزت وجود تنافرات عميقة فيما بينها. فهذا الدوار يضم 155 أسرة يصل تعداد أفرادها إلى 949 نسمة[3]، وينتمي إلى جماعة المساعدة التي تضم 12 دواراً أخرى، وعلى هذا المستوى نجد تفاوتا احصائيا، حيث أن المونوغرافية المعدة من طرف المصالح الفلاحية[4] تحدّد عدد سكان المساعدة في سنة 1978 بمجموع 6810 نسمة، بينما نجد حسب « معطيات الجماعات » لمديرية الاحصاء المنشورة سنة 1977 أن عدد سكان الجماعة المذكورة هو 24.505 نسمة. فكيف يمكن تأويل هذه التضاربات بين أرقام كل هيئة ؟. هناك افتراضات متعددة لتفسير هذه التناقضات في الإحصائيات الرسمية، نكتفي بتقديم بعضها : يُمكن أن تكون هذه الاضطرابات ناتجة عن اختلاف في مفهوم جماعة المساعدة لدى المصالح الفلاحية من جهة ومديرية الإحصاء من جهة أخرى ؛ والافتراض الثاني هو أن هذه التضاربات تبرهن عن لا مبالاة الجهاز الرسمي للاحصائيات بما في ذلك مصالح وزارة الفلاحة ومديرية الاحصاء بالعالم القروي ؛ أما الافتراض الثالث الممكن تقديمه كتفسير لهذه التناقضات العميقة حول حجم جماعة المساعدة، فهو أن الاحصائيات بصفة عامة، مبادرة فاشلة للتقويم العلمي للواقع في بلدان العالم الثالث. ونقصد بالتقويم العلمي، تقويما يعكس الواقع ويبلور حقائقه.

وقد أبرزت الطريقة الكيفية (الاستجوابات) وجود هُوَّة بين الواقع كما يدركه ويُقوّمه الفلاح من جهة، والاحصائي من جهة أخرى، وتتجلّى هذه الهُوّة في تقويمهما للبطالة والتمدرس. حسب الاحصائيين تتحدد نسبة الأفراد العاطلين بين الأولاد بـ 2،7 % وبين البنات 0،6%، أما حسب الخطاب الفَلّاحي فإن جُلّ الشباب والأطفال من الجنسين عاطل. وتجدر الإشارة إلى أن نصف سكان المساعدة أطفال لهم أقلّ من 15 سنة، إضافة إلى أن نسبة الشباب بين 7 و24 سنة، تشكّل وحدها 37،7 % من سكان الجماعة، وتمدرسهم يظل جزئيا وسطحيا. فأغلب المتمدرسين يغادرون المدرسة في مستوى المتوسط الأول، فيُحكم عليهم بالبطالة لأنهم يرفضون مُبَاشَرَة المهام الزراعية التقليدية الصغيرة والضعيفة المردودية التي يملكها آباؤهم.

وحسب الخطاب الفَلّاحي، تُعتبر الغالبية الساحقة من الشباب بهذا المعنى عاطلة. وَمسألة اعتبارهم العمل الموسمي كثير التقطّع ومُشَتَّتاً على طول السنة، كشكل للبطالة يذهب ضحيته بنفس الصورة الأولاد والبنات والمراهقين من الجنسين، لا تسعنا إلّا أن نؤكد الهوّة الموجودة بين هذه النظرة الفَلّاحية وبين تخمينات الاحصائيين. إن الشعور بالخيبة فيما يخص مستقبل الأطفال والشباب يُعَاشُ بحدّة في الغرب، لأن هناك إدراكاً قوياً لِكون المنطقة غنية وخيراتها تتدفق، ولكن على فئات معينة فقط.

2 ـــ البنية الزراعية : تحويل الأراضي من يد المعمرين الأجانب إلى يد الرأسماليين المغاربة والدولة.

ميزت الطبيعة هذه المنطقة، فكانت نقطة انطلاق عملية كبرى لـ « التحديث القروي » بواسطة استثمارات ضخمة من طرف رؤوس أموال موجهة لتحويل البيئة الطبيعية نفسها للمنطقة مِن سدود، تجفيف المستنقعات، مكننة الخ... وبعد انتهاء فترة الحماية الاستعمارية السياسية واعلان الاستقلال، جرى نقل الأراضي من أيدي المعمّرين، لا إلى قبائل المنطقة، ولكن إلى المستثمرين المغاربة الذين قاموا بشرائها.

ولذا لا يمكن أن نفهم نظرة الفلاحين الغرباويين التي تمسّ مشاكل التنمية والسكان، إذا لم نشدد على هذا العنصر الأساسي، لأنه هو الذي يحدد سلوكهم أكثر من أي دافع آخر. فبسبب اعتراضهم على شرعية الملكيات الخاصة، واعتبارهم للأراضي التي تُسيِّرها الدولة كأراضيهم، حسب قراءتهم للتاريخ، فإنهم يزيدون من عدد أطفالهم، ويستعجلون الأبناء العاطلين في الزواج مبكراً والانجاب، رغم التَّضَاؤُل الشديد لحجم القطع الأرضية (من 0،70 إلى 0،60 هكتار) (راجع الملحق، حيث يقدم شاب قروي من خلال حياته قضية الأرض وارتباطها بالزواج المبكر للأبناء في هذه المنطقة).

بالنسبة لهؤلاء الفلاحين، يجب أن يسعيدوا الملكيات الخاصة الشاسعة، وأن تكون ضيعات الدولة في خدمتهم وتصبح مُشَغِّلَةً لأبنائهم العاطلين. هذه القناعات العميقة هي التي تحرّك مسلكياتهم بصدد موضوع تزايد السكان، أي العلاقة بين الأرض والانسان، وعلاقتهم بالثروة الوطنية بصفة عامة. وبدون الدخول في تفاصيل الإجراءات الثانوية التى نظمت نزع

ملكية أراضي المعمرين من طرف المغاربة، يمكننا الاكتفاء بتسجيل ثلاثة أنواع من العمليات :

1 ــ تملك بعض الأراضي، الأكثر غنىً وتطوراً في الغالب، من طرف الملاكين الخواص المغاربة.

2 ــ تسيير بعض الأراضي من طرف شركتين للدولة أُنشئتا لهذا الغرض : «صوديا» قصد تسيير الأراضي المغروسة الصعبة التجزئة، و«الصوجيتا» بهدف تسيير الأراضي الجدباء وتطوير الرعي[5].

3 ــ توزيع جزء من الأراضي على الفلاحين في إطار مشاريع الإصلاح الزراعي.

ولأجل توضيح نتائج تحويل الأراضي من يد المعمرين الأجانب إلى يد المحليين، يجب التذكير بأحد أهم آثار هذا التحويل، الذي يلعب دوراً حاسما في الإدراك الفلاحي للواقع، وهو تركيز أجود الأراضي في وحدات كبرى للانتاج العصري مُسيَّرةً من طرف الدّولة أو الخواص من جهة، ومن جهة ثانية التفتيت المتواصل للقطع الصغيرة المستغَلّة من طرف صغار المزارعين.

ونقدم فيمايلي أرقاماً تفصيلية عن الوضعية القانونية للأراضي التابعة للمراكز الستة للاستثمار، بدائرة سيدي سليمان، والتي تقدر مساحتها الإجمالية بـ 154.225، تتوزع على الشكل الآتي[6] :

أولا : الدولة

1 ــ ثلاث شركات تابعة للدولة			
. صوديا SODEA	:	11.180	هكتار
. صوجيتا SOGETA	:	1.285	هكتار
. كوماكَري COMAGRI	:	2.115	هكتار
2 ــ المياه والغابات	:	25.075	هكتار
3 ــ الأملاك المخزنية	:	1.350	هكتار
المجمــوع	:	41.005	هكتار

ثانيا : الخواص

ــ ملكيات خاصة	:	46.580	هكتار
ــ حبوس (أوقاف دينية)	:	430	هكتار
ــ تعاونية (استغلال جماعي)	:	17.730	هكتار
ــ كَيش (نوع من التعاونيات)	:	38.470	هكتار
ــ تجزئات (موزعة في إطار الاصلاح الزراعي)	:	10.010	هكتار
المجمــوع	:	**113.2201**	**هكتار**

أما 17.555 هكتار المتبقية فتغطي الأراضي الغير مزروعة و/ أو المستعملة للعبور، إذا أضفناها إلى 154.225 هكتار القابلة للاستثمار، تصبح المساحة الاجمالية للأراضي التابعة لهذه الدائرة هي 171.780 هكتار.

من مجموع مساحة 154.225 هكتار، توجد 28،58 % تحت مراقبة الدولة التي تبرز في المنطقة كرمز للثراء والرّخاء، من طرف الفلاحين، لكونها تسيّر أجود الأراضي ولديها أقوى الوسائل والتجهيزات. من هنا نفهم الموقف التّبعي للفلاحين الذين يعتقدون بعمق أن الدولة شديدة الثراء، مما يُمكّنُها من حلّ جميع المشاكل، ومصادرُ ثروتها لا تنضب، لكنها لا تحاول مساعدتهم بشكل أفضل بسبب سوء النية. نأخذ مثال المدرسه التي تسقط في الإفلاس والخراب، فكل سنة وتحت تأثير سقوط المطر، وعندما يأخذ السقف في التفتّت يقوم السكان جماعيا باصلاحها مُرغمين. وحين نسأل الفلاحين عن سبب عدم تنظيمهم في إطار تعاوني لتحمُّل مسؤولية صيانة البناية المدرسية بشكل منتظم، فإن الجواب يأتي سريعا :

« ولكن المدرسة ملك للدولة، وهي غنية الى درجة استغنائها عنا. إنها كبيرة الثروة، ويمكنها القيام بكل شيء ».

وإن وجود الزراعات المرتفعة المردودية كالحوامض مثلا في يد الدولة أو يد القطاع الخاص، اللذين يقتسمان أغلب الأراضي المسقية، يجعل تركيز آمال الفلاح على تدخّل الدولة شبه خارق. فالتحديثُ القروي في هذه الأراضي (المسقية)، وهو مدعَّمٌ بسياسة الاستثمار والاعداد وارتفاع المردودية، يتناقض كل التناقض مع « التحديث » في الأراضي التي يملكها الفلاح الصغير، والتي تتسم بانعدام المردودية، وبالتفقير المتزايد لمُستَغِلّيها.

ثانيا ـــ تقويم الفلاح للسياسة التنموية التي نهجتها الدولة في المنطقة : إهمال البعد الاجتماعي للتنمية.

إن السياسة التنمويه الحالية، حسب الخطاب الفلاحي، خاطئة لأنها تهمل الحاجيات الاجتماعية للفلاح. كانت العائلة الموجهه من المواضيع الأساسية، التي طلبنا من المُستَجْوبين تناوُلَها بتعمُّق خلال ... حتى تتاح لنا الفرصة لكشف طموحات العائلة الفلاحية من جهة واحتياطاتها من جهة أخرى. وكان الهدف هو تحديد الأولويات بالنسبة للعائلة الفلاحية : هل هي نفسُها التي تستثمر فيها الدولة ؟ أم أن هناك فرق في تصور هذه الأولويات من طرف المخطِّط ومن طرف الفلاح ؟. وقد أبرزت هذه المقابلات وجود فرق شاسع بين الطرفين المذكورين، فبينما تُهمِل الدولة الجانب الاجتماعي كمجال للاستثمار، يعتبر الفلاح هذا المجال ذا أسبقية، فهو الذي كان على الدولة أن توجّه إليه استثمارات التحديث القروي. وقد اتضحت عبر هذه المقابلات أربعة محاور تتمركز حولها تطلعات العائلة القروية وطموحاتها وهي : الصحة، التعليم، الكهرباء وأخيراً التشغيل. وقبل أن نتناول كل محور على حدة يجب توضيح الفكرة الأساسية التي تتجلى في كل من هذه المحاور، **وهي أن العائلة الفلاحية لم تعد متشائمة مثلما كان الحال عليه في تراثنا التقليدي، بل أصبحت متفائلة، ففكرة « المكتوب » والاستسلام للفقر والرضى بمستقبل لا يضمن الارتقاء والحركية الاجتماعية**

أصبحت فكرة بائدة. لا يؤمن بها الفلاح المعاصر، ففكرة « المكتوب » اندثرت وعوضتها فكرة المستقبل الزاهر الحافل بأماني الرفاه والرُّقي.

1 ـــ الثورة الثقافية في عقلية الفلاح : غياب فكرة المكتوب والاستسلام له وبروز فكرة الرفاه والحركية الاجتماعية.

إن التطلعات إلى الرّفاه لدى الفلاحين تُشكّل في حدّ ذاتها قطيعة تامة مع تقليد القدر والبؤس، الحاضر كُلّياً في التراث الشعبي المغربي، سواء أكان قرويا أم حضريا. فمفهوم « المكتوب » طاغي السلبية في الغالب، إنه قدر ثابت للمعاناة لا يمكن تَجَنُّبُهُ، وهو من الأفكار النافذة بقوة في الثقافة المغربية التقليدية، التي تحاول أن تُكوِّن لدى الفرد نمطاً جوهريا للعيش أساسه « الصبر »، التحمُّل والجَلَد، التحمُّل للشقاء والبؤس، والجَلَد أمام المجاعات والأوبئة التي تقصّر أعمار الأفراد[7]. إن الأغاني والأمثال الشعبية حافلة بالتّغنّي بهذا المكتوب وهذه القدرية العمياء، وتتجلّى فلسفة الاستسلام هاته في عدد كبير من أمثالنا الشعبية وذلك من خلال مواقف وقضايا مختلفة منها :

أ ـــ فكرة البؤس كأفق للمستقبل :

تصاحب هذه الفكرة في غالب الأحيان فكرة ثانية، وهي الاستسلام إلى القوى القاهرة التي تتحكم في المصير بما فيها القدر أو الزمان أو الدنيا أو الأيام، في صمت وخمول :

الدَّنْيــا مْثَلْتَهَــا درَّاعَــة مَايَلْبَسْهَا غير الّلي يَشْطَحْ
يَلْبَسْهَا ويْدَوَّح بها ساعة ويَنْكُدْ عليها بعد ما يَفْرَحْ
المجــدوب

الدَّنْيــا يْسمِّيوْهــا نَاقَــةْ اذا عَطْفَتْ بَحْليبْها تْرْويك
وإذا عَصْفَتْ مَاتَشَدْ فيها لْبَاقَةْ يَتْكَفَّحْ ولُو كان في يْديك
المجــدوب

مَن لا يَقْرَا للزمان عْقُوبة يْجِي عْلَى رَاسُو مَكْتُوبْ
المجــدوب

. الدنيا مَاعْطَاتْ عَاهْدْ حَتَّى لْوَاحْدْ.
. غْرايب الدّنيا اكثر من مْصَايْبْهَا.
. المسكين بْلِيَّامْ عَرَّاتُو.

ب ـــ الألم في عزلة وصمت كأفق للمستقبل :

مَثَّلْتْ روحــي لِلْحَمَّــامْ مَبْنِي عْلَى صَهْد نارُو
مَنْ فُوقْ مَابَانْ دْخَانْ ومَنْ تَحْتْ طابو حجارو
المجــدوب

عَيَّــطْتْ عِيطَــةْ حْنِينَــةْ فَيَّقْتْ مْن كَانْ نَايْــمْ
نَاضْو قْلُــوبْ المَحْنَــةْ ورَقْدُوا قْلُــوبْ البْهَايَــمْ
المجــــدوب

الْهَـمْ يَسْتهَـلْ الغَـمْ   والسّتْـرَةْ لُهْ مْلِيحَـةْ
رَدْ الجَّلْدْ عْلَى الجَّرْح   نْبْـرَا وتْوَلّـي صحيحـة
المجـــدوب

ج ــ تقبّل الفوارق الطبقية كمُسلّمة

لاتْخَمَّـمْ لاتْدَبَّـرْ   لا تْرْفَدْ الهَـمّ دِيمَـةْ
الفَـلْكْ مَاهُـو مْسَمَّـرْ   وْلَا الدَّنْيَـا مْقِيمَـةْ
المجـــدوب

اَلّلي راقد على لْكْطِيفَة دَافِي   والعَرْيَانْ كيفْ يْجِيهْ النُّومْ
المْصَبَّطْ مادْرَا بَالحَافِي   والرَّاسي يضحك عْلَى الهْمُومْ
المجـــدوب

ضَرْبَتْ كَفّـي لْكَفّـي   وْخَمَّمْت في الأرض سَاعَةْ
صَبْتْ قَلّتْ الشّي تْرَشّي   وْتْسَـوَّضْ من الجْمَاعَـةْ
المجـــدوب

د ــ مفهوم الصبر والالتزام بالصمت وانعدام المبادرات لتغيير الوضع .

. الصبر مفتاح كل خير
الفارْ المْقَلّقْ من سَهْمْ القَطْ

ياصَاحْبِي كُونْ صَبَّارْ   اصْبَرْ عْلَى ما جْرَى لَكْ
ارْقُدْ على الشُّوكْ عَرْيَانْ   حتى يَطْلَعْ نهارك
المجـــدوب

. الصّبّار كَيْرْبَحْ والمقلق كيخسر
. اصْبَرْ على القليل يَاتِيكْ الله بالكثير
مكتوب رَبّي نْوَدّيـه   والصّبْرْ واجْبْ عْلِينَـا
المجـــدوب

في تراثنا الشعبي التقليدي كانت السعادة تُدرك كمعجزة بعيدة التحقق على الأرض، حيث تُعتبر « الحياة الدنيا » مجرد فترة قصيرة شقية، يَعْبُرها الانسان وهو في انتظار السعادة التي لا تتحقق إلا في الآخرة، في سراب الجنة، إن الترف والرفاهية في ثقافتنا التقليدية من صفات الجنّة التي تضمن السعادة للمؤمن جزاءً عما قاساه من احباطات في « الحياة الدنيا ». وتجدر الإشارة إلى أن الترف الذي كان يعيش فيه المعمّرون الفرنسيون في الثلاثينات والاربعينات، قد دفع الفئات الشعبية إلى التساؤل عن امكانية تحقيق السعادة في الأرض، فكَوَّنَتْ تحليلا مطابقاً للفلسفة التقليدية التي تؤكد أن السعادة من سمات الجنة الموعودة، وذلك بإعطاء تبرير ديني لأسلوب عيش المعمّرين مفاده أن المستعمرين الفرنسيين مسيحيون، لهم دين مغاير ولا يمكنهم دخول جنّة المسلمين وبالتالي فإنهم « يعيشون جَنّتَهُمْ على الأرض ».

لكن بعد الاستقلال برزت فئة من المواطنين، تشبه في أسلوب عيشها ترف المستعمر الفرنسي، ألا وهي فئة الملاكين الكبار والتقنيين والاداريين، لهم سيارات خاصة تنقلهم إلى العمل وتنقل أبناءهم إلى المدارس، يعيشون في بيوت يتوفر فيها الماء والكهرباء والأطعمة المختلفة وغرف متعددة ومُجهَّزة، إلا أن هؤلاء المواطنين مسلمين، وبالتالي فهم يعيشون ما يشبه الجنة على الأرض. وهكذا أصبحت نماذج حياة الفئات البورجوازية بما فيها الكبيرة والصغيرة، نماذج جديدة للسعادة والسعي إليها كمطلب شرعي وعادي من طرف أي مسلم.

إن مطلب « السعادة » هنا (على الأرض) والآن (في الحاضر، في الحياة) يُمثِّل قطيعة عميقة وجذرية مع التقليد الديني، الذي أُبعِدت فيه الجنة عن الواقع وعن الحاضر وكُبِتَتْ باتجاه مستقبل أسطوري. ومطلب الجنة على الأرض من طرف فلّاحِي الغرب مُحاطٌ من كل جانب بمكاسب التكنولوجيا الرأسمالية، من آلات دقيقة، ومحركات شبه سحرية، ومضخّات لجلب الماء وتصفيته، ومن مدارس ضامنة للوصول إلى النجاح، وتلفاز يفتح باب السفر إلى المُتَخيَّل، إن هذا المطلب اقتصر تحقُّقه على بعض المحظوظين. والفلاح الفقير يشعر أنه مطرود من هذه الجنة الراهنة، مما يترتب عنه جوّ الصراع الطبقي الذي يطبع أبسط مواقف الفلاحين وحركاتهم، كيفما كان سنهم أو جنسهم. من هنا، وبعد توضيح معالم الثورة الثقافية في عقلية الفلاح، يمكننا إيجاز مطلب الرفاه في ثلاثة قضايا مركزية : الصحة، والمترادفتين مدرسة — عمل، ثم الكهربة.

2 — القضية الأولى : التطلع إلى الرفاه : الصحة كإعادة صياغة للبيئة.

إن فكرة تقبُّل المرض والموت المبكّر، المنتمية إلى فلسفة « المكتوب » والقدر الخ.. أصبحت مرفوضة من طرف الفلاح وذلك لأن « الأغنياء ينجون منها » لأنهم محظوظون بسبب امتيازاتهم كالماء النقي والولوج السهل إلى الخدمات الصحية والتكوينية، واستعمال الكهرباء ومايليها..

أ — مشكل المـاء :

مطلب ضمان الصحة بالنسبة للفلاح لا يقتصر على طلب الخدمات الصحية وحدها، ولكن يعبّر عنه منذ البدء كرغبة قوية للتحكم الكلّي في المحيط الطبيعي، وهي رغبة مركّزة على مُشكلة الماء. للدوار بكارة وسيلتان للتزود بالماء : الآبار والأنهار، ويتوفر الأشخاص الميسورون على بئر مغطّى، حيث يُضخُّ الماء آليا. وحين يوجد بئر لدى الفلاحين الفقراء، فغالبا ما يُستفاد منه يدويا (تجدر الإشارة إلى أن ماء الآبار قذر وذو مذاق لا يحتمل حسب الفلاحين نفسهم).

إن المطالب المتعلقة بالماء تتحدد في مستويين :

— مستوى طبيعة الماء : مشكل التلوث الذي يشعر به الفلاحون الفقراء بشكل قوي. هؤلاء الفلاحون لم يتمكنوا من تجاوز العقبات التي تمنعهم من ادخال التجهيزات المائية الحديثة، ومنها الشّقاقات بين المجموعات الاجتماعية وانعدام الوسائل المادية.

ـــ مستوى الدور التقليدي للنساء كجّالبات للماء، والذي يمتص جزءاً لا يستهان به من طاقتهن ويحكم عليهن بأداء هذا النشاط كجزء لا يتجزأ من العمل المنزلي، تنجو منه نساء الفئات الميسورة.

إن جلب الماء النقي للعائلة، هو إحدى العقبات أمام تمدرس الفتيات في العالم القروي، فالأم محتاجة لهذه اليد العاملة الاضافية لمواجهة الأعباء المنزلية : في هذا الإطار فتاة في المدرسة تعني خادمة ضائعة. إن دور الأطفال في الخدمات التي يتطلبها نمط عيش العائلة القروية الفقيرة، ولا سيما فيما يخص جلب الماء وتجميع الحطب والسهر على الحيوانات، من المتغيرات المؤثرة في المسلكية الديموغرافية لهذه العائلة. فالأمهات يرغبن في إنجاب عدد كبير من الأطفال حتى يساعدوهُن في تحمّل الأعباء المنزلية، وبالتالي فإن العائلة القروية تطالب بماء نقي متوفّر داخل المنزل لا خارجه، وهو شيء يعتبره الفلاح أساساً ضمن كل سياسة صحية إجرائية.

وتجدر الإشارة إلى أن رغبة الأمهات في إنجاب عدد من البنات أكثر من الأولاد، والذي يمكن أن نلحظ منه نوعاً من القلق على هؤلاء، يعود إلى آفاق البطالة المرتبطة بمستقبلهم ووضعيتهم، ورغبةُ إنجاب البنات تحررهن نسبيا من مثل هذه الهموم.

ب ـــ مشكل الولوج الى الخدمات الصحية :

إن الفلاح، فقيراً كان أم غنيا، يرفض الطبّ التقليدي لمواجهة المرض ويتطلع للولوج إلى الطب العصري، الذي حسب رأيه هو الوسيلة الوحيدة القادرة على ضمان الحياة الجسدية الهنيئة والسليمة. ولكن يجب التمييز كما هو الحال فيما يتعلق بموضوع الماء الصالح للشرب، بين مستويين : ما يتعلق بالتطلعات، وما يتعلق بالسلوكات العملية.

فإذا لم يكن على مستوى التطلعات فرق بين الطبقات الاجتماعية، فإن العكس هو ما نلاحظه على مستوى السلوكات، حيث الفوارق شاسعة. فالفلاحون ـــ أغنياؤهم مثل فقرائهم ـــ يتطلعون للاستفادة من التقنيات العصرية في ميدان الصحة، والجميع بدون استثناء، يعقِدون رابطا مباشراً بين الوصول إلى الخدمات الصحية العصرية وبين الرفاه العائلي، وبالأخص ما يتعلق منه بالطفل قبل ميلاده وبعده. إن الحمل والولادة من النقط التي تتبلور فيها الحرمانات فيما يتعلق بالطب، وتعتبر الطريقة التي تضع بها المرأة حملها، وذلك من طرف الأسر ومن طرف الأمهات بالأخصّ، كمقياس لا يجادل فيه للحظوة، وكمرادف للقدرة الشرائية. فإذا كانت النساء الفقيرات لا تحصُلن في فترة الحمل على أية رعاية طبية وتلدن في المنزل بمساعدة مولِّدةٍ تقليدية، فإن النساء الميسورات، عكس ذلك، يفتخرن بمتابعتهن من طرف الطبيب منذ الأسابيع الأولى للحمل ووضعهن في وَحْدَةٍ طبية عصرية، ونضيف بهذا الصدد أن الوصول إلى الخدمات الصحية فيما يخصّ التخطيط العائلي يعتبر كذلك من مظاهر الحظوة ومن امتيازات العائلات الميسورة، ويجب التفرقة هنا أيضا بين مستوى الطموحات ومستوى الممارسة، لأن المستوى الأول غير مقرون بالامكانات المادية بينما المستوى الثاني مُقَيَّدٌ بها :

ــ سلوك العائلات الميسورة : تتبنى هذه العائلات موقفا تخطيطيا مباشرة بعد الطفل الثالث، وعادة ما يكون الرجل والمرأة هنا واسعي الاطلاع ومندمجين في العملية.

ــ سلوك الفلاحين الفقراء : مهما كان وعيهم بالضرورة الفعلية لتباعد الولادات من أجل صحة وتربية الأطفال، فإنهم يلمسون عجزهم عن تطبيق هذه الأفكار بسبب الفاقة.

حتى لو قبل الفلاح الفقير تقليل عدد الأطفال، فإنه لا يُحَسِّنُ وضعيته أبداً، وأن يكون لديه ثلاثة أطفال عوض سبعة فإن ذلك لا يضمن له نهائيا فرصة أحسن لتنمية دخله، ولا بالتالي الدخول إلى المستشفى أو تعليم أطفاله وتوفير ظروف تربوية أحسن، فبمقدار اشتداد فاقته بمقدار ما يتضاءل الاستثمار المخصص لكل طفل. إن الاعتمادات التي يمكن للفلاح تخصيصها لكل طفل ضعيفة سواء كان لديه ثلاثة أطفال أم ثمانية، إن هذا يُعتبر لديه عديم الأهمية، زد على هذا أنه إذا كان له ثمانية أطفال، فهناك حظٌ أكبر لضمان بقاء ولو نصفهم على الأقل، وذلك لأن نسبة الوفيات في الغرب، كما في المغرب بأجمعه تختلف حسب الامكانيات.

تخفيض عدد الأطفال إذن، بالنسبة للفلاح الفقير، شيء غير منطقي وغير اقتصادي كليا، في ضوء استراتيجية شمولية للبقاء ضمن مستوى من الفقر الشديد. فمردود وَحدة الانتاج صارم إلى درجة يكون من الأفيد فيها أن يضاعف عدد الأفراد، أي عدد العاملين، ومن بينهم الأطفال، خاصة البنات، اللاتي يعتبرن عاملات منذ السنة الثالثة من عمرهن. ومن الأسباب التي تدعم هذه النظرة إلى الأطفال كيد عاملة منذ صغرهم، في الوسط القروي، كونهم محرومون في أغلبيتهم الساحقة من التعليم والتكوين.

3 ــ القضية الثانية : التطلع إلى الرفاه،التعليم والتطلع إلى عمل عصري كرفض جذري للوضعية الفلاحية التقليدية.

يتجلى الوصول إلى التعليم والعمل « العصري » كما لو أنه الوسيلة الوحيدة للتخلص من المصير المُعْتَبَر بئيسا ومُذلًا، أي الوضع الفلاحي « التقليدي ». ويترجَم هذا الموقف في رفض المدرسة القرآنية والطموح إلى ولوج المدرسة الحديثة.

أ ــ رفض المدرسة القرآنية كمغالطة تاريخية والتطلع الى المدرسة العصرية كأداة لتغيير المصير الفلاحي :

تعتبر المدرسة القرآنية التقليدية، كما هو الحال فيما يتعلق بالصحة، من طرف الجميع، عديمة الفعالية وعاجزة عن تهييء الطفل للولوج إلى العمل العصري. إن التجهيز التعليمي على صعيد دوار بكارة، وهو محظوظ لأن جل الدواوير المجاورة لا تحتوي على مدارس وأطفالها مرغمون على الالتحاق بمدرسة بكارة، يحتوي على ثلاثة أنواع من المؤسسات :

ــ الكتاتيب القرآنية المسيَّرة من طرف الفقهاء على الطراز التقليدي.

ــ « مؤسسات » تلعب دور الكتاتيب القرآنية في غياب الفقيه، ويتجسد هذا النوع

في حالة خياط يستقبل عدداً من الأطفال، يحرسهم ويعلّمهم مبادىء القران أثناء خياطة جلابيب وقمصان الزبائن.

ـــ وأخيرا المدرسة الابتدائية الرسمية العمومية.

. المدرسة القرآنية : مُسَكِّن محدود الفائدة.

هناك على صعيد بكارة، باستثناء الأربع قاعات للمدرسة الابتدائية الرسمية العمومية، عدد من الفقهاء (معلمين ذكور، لهم مسؤولية مدرسة قرآنية ويستقبلون الأطفال ابتداء من عامهم الثاني) أو أفراد يقومون بهذه الوظيفة (حالة الخياط المشار إليها أعلاه). هذه المدارس القرآنية تُموَّل من طرف الآباء، حيث تدفع كل عائلة للفقيه حوالي درهم واحد في المتوسط كل يوم جمعة، كما أن الهدايا (بيض، حليب، حبوب) وخاصة الوجبات المطبوخة المقدمة بين حين وآخر للفقيه، تضمن لهذا الأخير حداً حيويا أدنى لا يمكن لمداخيل يوم الجمعة الغير منتظمة أن توفرهُ له. ورغم وجود هذه المدارس القرآنية، فلا أحد ينخدع بقدرتها على إدماج الطفل في الحياة العصرية : الكبار كالصغار يعتبرونها مجرّد مُسكّن، ذي فائدة محدودة وعارضة. بالنسبة للأمهات، تعتبر المدرسة القرآنية نظام حراسة للأطفال لِقَاءَ مقابل متواضع، وبالنسبة للآباء تعدُّ ضمانة لترسيخ مبادىء القرآن والكتابة في ذهن الطفل من طرف الفقيه. لكن الأمهات والآباء يتفقون مع الأبناء، في اعتبار المدرسة التقليدية غير قادرة على الإعداد للحياة المهنية، في حين أنهم يستثمرون المدرسة لرسالة كبيرة الأهمية، هي الإعداد للعمل، للتشغيل والتوظيف.

. المدرسة العصرية : أداة للتقدم والرّقي وضمانٌ للحركية الاجتماعية.

إن الأماني التي يستثمرها الآباء في مدرسة بكارة الابتدائية تفوق بكثير فعالية هذه المدرسة وقدرتها على إنقاذ أبناء الفلاحين من الأمية والجهل. وقد أُحدثت هذه المدرسة في فترة الاستقلال، وهي من نوع البناء الجاهز، مكونة من أربع قاعات، سعة كل منها أربعون مقعداً، تضمن تهيىء المستوى الابتدائي إلى حدود المتوسط الأول فقط، لأن المدرسة مقطوعة الرأس حيث لا تتوفر على القسم الخامس، وبالتالي يجب على الآباء أن يبعثوا الأطفال إلى سيدي سليمان على بعد حوالي عشر كيلومترات لإعداد شهادة الدروس الابتدائية. هذه السنة الخامسة تشكّل انزعاجاً حقيقيا وعقبة يصعب تجاوزها تقريبا، فالأغلبية الساحقة من التلاميذ المنحدرين من العائلات الفلاحية الفقيرة، لا يتمكنون أبداً من تخصيص الاعتمادات الضرورية لاجتياز هذه السنة الدراسية بأقرب مدينة. لأن عليهم في الواقع الاختيار بين ثلاثة حلول كل منها مُكَلّف بالنسبة لميزانية عائلة فلاحية، وهي : إمَّا إحْلاَلُ الطِّفل خلال هذه السنة عند أصدقاء أو أقرباء مما يفترض أن هذه الأسرة المضيفة ميسورة إلى درجةٍ تُمكّنُهَا من إيواء طفل زائدٍ لمدة أكثر من تِسعة شهور، بدون تَضْحِيَاتٍ كبيرة، أو أن يكون أهل الطِّفل في حَالٍ مَيْسُورٍ يُمَكِّنُهُم من تقديم هدايا وخدمات خلال هذه الشهور التسعة لتعويض الأسرة المضيفة. هذان الحَلاَن يقتضيان إمّا أن تكون للفلاح علاقة ما مع عائلة ميسورة قاطنة بالمدينة، وإما أن يكون قادراً على تخصيص رأسمالٍ ما (اعتمادات نقدية أو خدمات) لضمان إيواءِ الطِّفل طِيلة هذه الشهور. الحل الثالث يكمن في إمكانية أداء المصاريف اليومية لنقل

الطفل إلى المدينة (ثلاثة دراهم ذهابا وإيابا)، وهو حلّ ليس فقط مكلُفاً، بل يتطلب، نظرا للجهود المطلوبة من طرف التلميذ، قوَّة الحافز للحصول على شهادة الدروس الابتدائية، وحتى إذا ما تمكّن الفلاح من تخصيص الاعتمادات الواجبة لتنقّل ابنه، فهو غير متأكّد بأن هذا الأخير سيصل في الوقت المحدَّدِ إلى المدرسة، نظراً لانعدام انتظام وسائل النقل المتوفرة، هذا زيادة على أن فصل الشتاء بالمنطقة غزير المطر، حيث تكون الطرق مغمورة بالمياه والفيضان مستمرًا خلال عدة شهور.

إن الفيضانات التي تعرفها المنطقة في فصل الشتاء تُحدث اضطرابا في الحياة المدرسية بالدوار، وذلك على مستويين :

ــ أولا على مستوى سير مدرسة بكارة نفسها : فالمدرّسون القاطنون بالقرية المجاورة، باستثناء بعض الحالات، يستعملون الدراجة النارية للتنقّل، إذا توفرت لديهم امكانية اقتنائها، والحال أن تغطية الكيلومترات العشر الفاصلة بين مقرّ السكنى والمدرسة تتطلب جهداً ينذُرُ من يقدر على بذله، لذا غالبا ما تقفل المدرسة بشكل عام بسبب غياب المعلمين طيلة فترة طويلة من فصل الشتاء.

ــ ثانيا على مستوى التلاميذ المنخرطين في قسم الشهادة الابتدائية بسيدي سليمان : إن هؤلاء التلاميذ المطالبين بالذهاب إلى المدينة لاجتياز هذه المرحلة الدراسية، يضطرون إلى التخلي عن ذلك طيلة عدة أسابيع بسبب حالة الطرق المستعصية، أضف إلى ذلك أن الأطفال الذين يقطعون عدة كيلومترات، يصلون مُنهَكِين إلى المدرسة، حيث لا يتناولون أثناء وجبة الغذاء سوى قليل من الشاي والخُبز الجاف، قبل حصة ما بعد الظهر. إن الارهاق وسوء التغذية والبرد هي العلل القائمة وراء الفشل المدرسي، والتي غالبا ما يتذرّع بها المعلمون والآباء والتلاميذ.

ب ــ المدرسة كمؤسسة لتكوين العاطلين واجتثات القرويين :

من هو المسؤول عن الفشل المدرسي، المدرسة أم الطفل ؟ هذا التساؤل يقسم العائلات المغربية الفقيرة إلى مجموعتين حسب المواقف. هناك العائلات التي تتخذ الموقف التقليدي أي تجعل مسؤولية الفشل المدرسي على عاتق الطفل وحده، وبالتالي تتخذ مواقف قصوى ضِدَّهُ، وتحارب « كسله » و« قلة عقله » و« غفلته » الخ... إن المؤسسة التكوينية بالنسبة لهذه المجموعة، مؤسسة مقدسة يستحيل الطعن فيها، وتكرس هذه العائلات الموقف التقليدي إزاء المؤسسة التعليمية، الذي يعكسه المثل المتداول إلى يومنا هذا :

« أنت (الفقيه) ادبح وأنا (الأب) نسلخ »

يعكس هذا الموقف تحالف السلطتين، السلطة العائلية والسلطة التكوينية، حيث يسخّران مجهوداتهما لنفس الهدف : تكوين طفل صالح للمجتمع وقابل للفلسفة التي تُلهم مؤسساته وهياكله التَّراتُبية، وخاضع لمن هو أقوى.

في العشر سنين الأخيرة ظهر موقف جديد إزاء الفشل المدرسي، حيث أضحت العائلات

تتحالف مع الطفل ضد المؤسسه التكوينية، ويجسِّد هذا الموقف في حدّ ذاته قطيعة ثقافية أساسية بالنسبة للوعي داخل مَجموعة العائلات الفقيرة التي تعاني من الفشل المدرسي، ذلك أن هذه المجموعة تُحمِّل مسؤولية الفشل المدرسي للمؤسسة التكوينية، وتعبّر بالتالي عن تفكك التحالف التقليدي بين السلطة العائلية والسلطة التكوينية. إن هذا الموقف جد مهم كوثبة للوعي الاجتماعي في بلادنا، حيث أصبح المواطن (الأب) يحلل ماهية مؤسسة ما ويحكم عليها من خلال هذا المنظور. هذا الموقف الجديد الذي يتعاطف فيه الاب مع ابنه الفاشل في المدرسة ويعتبره ضحية للمؤسسة التعليمية، يعبر في نفس الوقت، عن تقييم ذاتي من طرف الفرد للهياكل الاجتماعية والمؤسسات وماهياتها وتحالفاتها وتفككاتها. وتكونت لدى هذا الأب مسلمات متعددة أبرزها :

ـــ إن مؤسسة التكوين لا تخدم هدفا مقدساً.

ـــ مصالح مؤسسة التكوين تتضارب مع مصالحه كأب.

ـــ لمؤسسة التكوين موقف مُعادٍ له كأب لأنها رفضت ابنه.

ـــ وأخيراً، هذا الأب مقتنع بوجود مدرسة مثالية يمكنها أن تخدم الصالح العام، وأن تعطي بالتالي الفرصة لابنه في النجاح.

إن موقف العائلة الغرباوية المبحوثة من هذا النوع الثاني، أي أن سكان دوار بكارة يعطفون بقوة على ابنائهم الفاشلين في المجال المدرسي، ويحمّلون المسؤولية الكاملة للمؤسسة التكوينية، التي أصبحت تجسد الخيبة والأمل في نفس الوقت، وذلك لأن عدد الضحايا يفوق بكثير عدد الناجحين :

« عمر ابني الذي ترونه، 15 سنة، إنه الآن عاطل، قضى أربع سنوات في المدرسة وأخرجوه دون شهادة، إنه ليس صالحا لأشغال الحقل التقليدية، لذلك يظل يدور طيلة يومه ».

سؤال : لماذا لم يعد ابنك صالحا لاشغال الحقل التقليدية ؟

جواب : لأن هذه الأعمال وسخة وصعبة، يجب التعوّد عليها منذ سنوات العمر الأولى، ولكن ابني استطاب الجلوس بين 7 و15 سنة، وهي فترة التدريب التي يتعود الجسم فيها على مشاق المهنة. شخصيا لا أشغِّلُهُ عندي. لماذا ؟ لأنه لا يحب هذا العمل التقليدي، يرعى الحيوانات وهو يفكر أن يصبح محاسبا، يحرث وهو يحلم بملء الأوراق في المعمل. لذلك يكون عمله ناقصاً، ولا يجيد شيئا. كلّ المُمَدْرَسين لا يجدون عملا، ولو تقليديا، لأنّ لا أحد يمنحهم ثقته، وأنا بدوري أرفض أن أعطي عملا لابني. اسألوه مباشرة عن رأيه.

سؤال موجه إلى الشاب : هل تتفق مع رأي والدك ؟

جواب : ماقاله والدي صحيح، إنني أخجل من مزاولة العمل اليدوي، أجِدُهُ مُحِطاً للقيمة. لماذا ظللت أربع سنوات بالمدرسة ؟ إنني لا أعرف كيف أمارس العمل اليدوي التقليدي، لم أتعود عليه، فهو مُتعِب.

سؤال : ماذا تريد أن تفعل ؟ وكيف تتصور الحل ؟

جواب : الحلّ هو أن تشغّلني الدولة بالمكتب (مكتب الاستثمارات الفلاحية) أو بالضيعات التي تسيِّرها بالمنطقة، هناك أعمال عديدة يمكنني القيام بها، ولا تتطلب تعلّما كثيراً : سياقة الجرارات وآلات الحصاد وغيرها، تسجيل الفلاحين الذين يريدون استعارة الجرَّار، تنظيم توزيع الماء بين المستفيدين منه، الاشتغال باطعام الحيوانات والمحافظة عليها ورعيها، كل شيء في القطاع الخاص أكثر استساغة. أقل وسخاً وأقل تعباً، ومُؤدًى عنه بانتظام.

(فلاح عمرهُ 40 سنة، أب لثمانية أطفال، يكتري الأرض سنويا، مهنته ميكانيكي)

ما هو المسار المدرسي « العادي » وبالتالي ما هو المسار المهني للمراهق « العادي » الذي حاول في طفولته الاستفادة من المدرسة ؟ إن هذا المسار كالآتي :

1 ـــ يُبْعَثُ الطفل إلى المدرسة القرآنية من 3 إلى 7 سنوات، ولكن وقتما احتاجه أبواه لانجاز بعض الأعمال في الحقل، يحررانه من الواجبات المدرسية.

2 ـــ يسجل الطفل في هذه المرحلة بالمدرسة، هنا أيضا تتخذ مطالب والديه، حينما يحتاجان إليه، مكان الصدارة بَدَل الواجبات المدرسية، مما لايساعده أبداً على النجاح.

3 ـــ في حوالي 14 أو 15 سنة من عمره، يطرد الطفل من المدرسة أو يغادرها بمحض إرادته، بعد أن يرسب عدة مرات وبانتظام في كل فصل، فيجد نفسه بدون شهادة ولا تكوين يؤهله للحصول على مهنة عصرية، سواء في ضيعات الدولة أو عند الخواص، ويرفض القيام بالأعمال الزراعية التقليدية في الملكية العائلية، حيث التقنية بدائية والعمل اليدوي وسخٌ في نظره.

إن غضب العائلة فيما يخص الفشل المدرسي، يعززه غضبها تجاه البطالة ورفض ضيعات الدولة لتشغيل الفاشلين من الأطفال والمراهقين تشغيلا منتظماً، مما يجعل الفلاح الغرباوي يعيش احباطات متنوعة من طرف المؤسسات العصرية التي تنظم الحياة الاقتصادية والاجتماعية في المنطقة، بما في ذلك المدرسة ومصالح وزارة الفلاحة، ولا سيما ضيعات الدولة التي تجسِّد الترف والرخاء :

« أنا (فلاح) ولدي كيمشي في الصبح للمدرسة في الشتا والغيس، ولد مدير المركز كيمشي في سيارة دافئة. أنا ولدي كيتدحى من المدرسة. أولاد مّالين المركز كينجحو ويطلعو للثانوي وكيتخرجو أطبّة ومهندسين، أمّا ولدي ما كيلقاش خدمة مرسّمة مع (سُوجيتَا) حتى كعامل أو غير يشطّب... ».

إنها الدولة وليس الشاب، هي المُعتبرة مسؤولة عن البطالة : الطفل غير مُلام أبداً، إنه يعتبر ضحية وهو بحاجة إلى مساندة الوالدين. وبدعم من والديه في كثير من الأحيان يتزوج الشاب العاطل مبكراً ويتحمّله والده رغم المصاعب المادية.

لقد التزمنا في هذا البحث، بإعطاء نظرة الفلاح إلى المجتمع، وكيف يعيشه، ولكننا سنفتح هنا قوسين للتعبير عن رأينا الشخصي حول ما يتعلق بالمراهق في دوار بكارة. قمنا ببحوث في **مدن القصدير بضواحي الرباط وسلا** حول مواقف العائلة إزاء المشاكل التي تتخبط فيها، ولا سيما الفشل المدرسي وبطالة المراهقين، ولم يسبق لنا أن عثرنا على عائلة راضية عن مراهقيها وتتعاطف معهم إلى الحد الذي شاهدناه في بكارة. إن العائلات التي بحثناها وقابلناها من قبل، رغم عتابها للمدرسة وتحميلها فشل المراهق، تتخذ موقفا صارما إزاء هذا الأخير، حيث تُحذِّرُهُ ضد الكسل ولا تسمح له بالتنازل عن المطالبة بالعمل، حيث يصبح البحث عن شغل عملا يوميا بالنسبة له، كذلك تتخذ هذه العائلة موقفا صارما ضد زواج المراهق العاطل. أما في **بكارة** فقد شاهدنا العكس، حيث ينهمك الآباء في الأعمال اليدوية التي يتطلبها الحقل ولا يفرضونها على أبنائهم، الذين يرفضون بدورهم مزاولة هذه الأعمال، كما لمسنا ظاهرة نادراً ما توجد، وهي تشجيع الآباء لأبنائهم العاطلين على الزواج المبكر، وعلى التكثير من الأطفال رغم فقرهم المتزايد. كيف يمكننا تحليل هذه الظاهرة ؟ لماذا يتّخِذُ الفلّاح الغرباوي الفقير هذه المواقف التعاطفية المفرطة إزاء أبنائه العاطلين ؟. هناك تأويلات وتخمينات شتى يمكننا أن نوردها كردٍّ على هذا السؤال في غياب بحث ميداني. لذا سنكتفي باقتراح تأويل ذاتي، ولكنه مبنيّ على ارتساماتنا وانطباعاتنا خلال الفترات التي قضيناها في دوار بكارة، ومضمونه أن موقف العائلة التعاطفي المفرط إزاء المراهق لا يُفهم إلا إذا أُخذنا بعين الاعتبار مدى تغلغل الرأسمالية في المنطقة، وبالتالي مدى التطاحنات الطبقية، في منطقة تتدفق خيراتها في الوقت الذي تحرم فيه جل عائلاتها من قطف ثمار الرأسمالية والتكنولوجيا والعصرنة. إن هذه المحاباة تجاه المراهقين العاطلين، الغير عادية في المجتمع المغربي، الذي يحتقر الكسل ويُثَمِّنُ العمل، لا تُفْهَمُ إلا في سياق الصراع الطبقي الحاد الملاحظ بالغرب، ويشجع الفلاحون أبناءهم العاطلين على الانجاب لممارسة الضغط على الدولة ودفعها لتوزيع الأراضي عليهم.

إنه مجرد تأويل ذاتي في انتظار بحث ميداني يركّز على هذه المسألة كإشكالية أساسية ويحاول تحليل أبعادها ومفاهيمها. وسأغلق القوسين هنا للرجوع الى موضوعنا وهو الخطاب الفلاحي في دوار بكارة.

لقد رأينا إلى حد الآن أن الفلاح الغرباوي، يشعر بظلم اللامساواة ويهاجمها ويطالب بالعدالة الاجتماعية، فيما يخصّ توزيع الأراضي والاستفادة من المصالح العامة من مدرسة ومستشفى، إلا أن هذا الفلاح الذي يطالب بالمساواة في كل هذه الميادين، يرفضها فيما يخصّ العلاقات بين الجنسين، حيث يتشبث بالتقليد في هذا الميدان ويرفض أي تغيير يمس هذا الموضوع، فهو لا يشعُر أبداً بالحاجة إلى التغيير في اللامساواة التي تنظم العلاقات بين الجنسين وأدوارهما داخل العائلة والدوار، فهذا الفلاح الذي يطالب بالعمل المأجور يرى أنه من الطبيعي أن تعمل زوجته أو ابنته معه بدون مُقابل، وهو الذي يطالب بالمساواة، يرى أنه من الطبيعي أن يتصرف في أجرة زوجته التي تحصل عليها مقابل العمل في ضيعات الدولة أو القطاع الخاص موسميا، هو الذي يطالب بتعليم الابناء لا يرى جدوى في تعليم الفتيات. وبصفة عامة يمكننا القول أن هذا الادراك للظلم الاجتماعي ولا مساواة الفرص، لا ينتج عنه التهجّم

على اللامساواة بين الجنسين، إلا لدى قلة من الرجال البارزين بالأخص في أوساط الأجيال الشابة، ثم إن هذه اللامساواة بين الجنسين تؤثر بقوة على ولوج الفتيات إلى المدرسة.

ج ــ اختلال المدرسة العصرية، وتأثيرها الحاسم على صورة المرأة ودورها في المجتمع : « شهادات لبنات الأغنياء، العمل غير الرسمي والبطالة والبغاء للأخريات ».

ينقل هذا العنوان الملاحظة التي يرددها تِقْنِيٌّ زراعي شاب، ملخصاً فيها بتركيز وضعية المرأة في العالم القروي. حسب رأيه فإن الأدوار الجديدة للمرأة : التعلّم وسياقة السيارات والعمل بالادارات العمومية، تعتبر نماذج مرجعية للجميع، فقراء وأغنياء، رجالًا ونساء. ولكن يظهر أن نماذج النساء هاته المندمجة في الاقتصاد العصري، تساهم في الواقع في الحطّ من قيمة الوضعية التقليدية للمرأة التي لا زالت مصير الأغلبية الساحقة. كان للمرأة القروية التقليدية نوع من الاحترام لذاتها ولدورها ومساهماتها داخل العائلة والقرية والاقتصاد العائلي الذي كانت تلعب داخله دوراً أساسياً كعاملة يدوية، وكناسجَةٍ للملابس، كعنصر أساسي يسهر على تغذية المواشي ورعايتها، وأخيراً كعنصر حيوي فيما يخص صحة الأطفال والكهول وذلك لمعرفتها بالعشوب ودرايتها بالطب الشعبي والسحر الخ...، أما الآن فإنها مع تغلغل الرأسمالية في المنطقة تشهد تحطيماً لأدوارها التقليدية، وذلك من خلال تحطيم نظام الانتاج العائلي نفسه.

إن مردودية المرأة داخل الانتاج العائلي الحالي سخيفة، ولا يرجع لكونها تعمل أقلّ من قبل بل يرجع لإفلاس النظام العائلي للانتاج (Le mode de production domestique) الذي تعرفه بلدان العالم الثالث منذ انفتاحها على السوق الدولية. إن مردودية المرأة القروية في الحقل العائلي اضمحلّت وشهدت تقهقراً عميقاً، لا لأن هذه المرأة لم تكرّس حياتها لأعمال شاقة كما فعلت ذلك قروناً من قبل، ولكن لأن البقعة الأرضية التي تستغلها العائلة أصبحت تصغر يوما بعد يوم، بسبب الحصار الذي تعيشه هذه العائلة وسط انتشار واتساع الوحدات الكبيرة للانتاج الرأسمالي، بما فيها وحدات القطاع الخاص والدولة. وأدى إفلاس النظام العائلي للانتاج بالمرأة القروية إلى الشعور بالعقم فيما يخص المساهمة في الانتاج، وذلك لأنها على عكس الرجل، لا زالت تعتبر المجال العائلي الضيق كمجال لحياتها، وهذه هي نقطة الانشقاق الأساسية في المصير الفلاحي حسب الجنس. إذا كان الرجل والمرأة يعيشان في القرية المغربية إحباطات عميقة، فإن هناك فرقاً شاسعاً في تجربتهما، لأن الرجل مزّق الحدود العائلية لتجربته وطموحاته، بينما لا زالت المرأة سجينة داخل تلك الحدود. فالرجل الغرباوي يطالب بمجالات أخرى كالمؤسسات التكوينية والعمل المأجور في ضيعات الدولة، ولكن في نفس الوقت يرى أن ليس للمرأة حق شرعي في هذه المجالات الجديدة، وترى نفسها هي الأخرى كعنصر لا شرعية له في المطالبة بتمزيق الحقل العائلي كحقل لاستثمار الجهود، والسعي إلى تحقيق الذات والترقية الاجتماعية. في الوقت الذي يدرك فيه الفلاح أن الحقل العائلي كمجال لتحقيق الذات واستثمار الجهود محكوم عليه بالعقم والفشل في إطار الرأسمالية وتغلغلها في أحشاء المجتمع الذي يعيش فيه.

إن العلاقة بين الجنسين تمثّل، داخل الحياة القروية بالدوار، أحد الأبعاد التي تشهد التغيّرات الأكثر عمقاً وفي نفس الوقت الأكثر تضاربا، إذا أخذنا بالاعتبار التفاوت والتناقضات بين ادراكات هاته التغيرات من طرف الرجال من جهة، والنساء من جهة ثانية. ومما لا جدال فيه أن أدوار الجنسين من الموضوعات المفتوحة باستمرار داخل العائلات القروية، كما تعكس ذلك المقابلات الجماعية التي أجريت مع الفلاحين، حيث النقاشات مثيرة، مما يبين أهمية وعمق التغيرات التي يعيشها المجتمع القروي على هذا المستوى.

وكما رأينا من قبل في جميع المشاكل المطروحة داخل العائلة القروية، هناك مستويان يجب العمل على التفرقة بينهما، وتحليل ما يجري داخل كل مستوى منهما على حدة، وهما مستوى التطلعات ومستوى السلوك، وذلك لأن التقسيم بين هذين المستويين يُبرز لنا الممارسات الطبقية التي تتبلور على مستوى الممارسة لا على مستوى التطلعات، مثلا العائلة القروية الفقيرة تطمح كالعائلة القروية الغنية إلى تعليم الإناث لكن أب العائلة الفقيرة يدفع بابنته إلى القيام بمهمة جلب الماء وجمع الحطب على مستوى الممارسة، ويجادل في حق ابنته في الذهاب إلى المدرسة التي يدفع ابنه إليها، رغم آفاق الفشل الذي يخيم على مصيره. إن الشابة الفلاحة تشعر بكونها محرومة من عالم المدرسة الذي يفتح أبوابه أمام أخيها ولو لبضع سنوات:

فلاحة عمرها 17 سنة، تشتغل في ضيعات القطاع الخاص أو الدولة موسميا، تعيش مع عائلتها الموسعة (الأب وأبناؤه وزوجاتهم وأبناؤهم) التي تشمل 16 فرداً، يستغلّون بقعة أرض لا تزيد على خمس هكتارات غير مسقية، كل البنات في عائلتها أميات :

سؤال : ماالذي كنت تقومين به قبل عملك كمأجورة بالضيعات ؟

جواب : كنت أشتغل لحساب العائلة. حين كنت طفلة، كنت أساعد والدتي بالمنزل، أرعى إخوتي الصغار، وأعينها في الأعباء اليومية. كنت أذهب لجلب الحطب والماء، أنظف فناء البيت والغرف، أساعد في إيقاد النار لطبخ الخبز. وبعد ذلك، حين كبرت أكثر، بدأت في رعي الحيوانات، أذهب بها وأعيدها، أحيانا أرعاها وحدي، وأحيانا أخرى أذهب برفقة أخي. حين تقدم عمري، في حوالي سنتي العاشرة، أخذت أعمل بالضيعات.

سؤال : لم يسبق لك أبداً أن دخلت المدرسة ؟ حتى المدرسة القرآنية ؟

جواب : نهائيا ! هنا لا نرسل البنات إلى المدرسة، إنهن يشتغلن، يساعدن أمهاتهن، يجلبن الماء والحطب، ويهتممن بالأطفال. كيف يمكن أن نبعث بنتا إلى المدرسة ؟ لا يمكن للأم أن تقوم بكل شيء، ومن يهتم بالحيوانات ؟ هل هم الأولاد ؟ إنهم في المدرسة. الأغنياء فقط هم الذين يبعثون ببناتهم إلى المدرسة. أنا لم يسبق لي الدخول إلى المدرسة. إخوتي نعم، ولكن أنا لا. إنهم لم ينجحوا في إتمام تمدرسهم، ولكنهم يعرفون القراءة والكتابة. أما أنا فلا أعرف شيئا.

أما أب العائلة الميسورة في دوار بكارة فيطمح إلى تعليم البنات ويمارسه، ويسخر الجهود والامكانات لهذا الهدف. فيمايلي مقتطفات من مقابلة مع فلاح متوسط في سن الثلاثين،

يستثمر 25 هكتار غير مسقية ورثها عن أبيه ويملك جرّاراً وشاحنة وسيارة ومحركا لجلب الماء، له أربعة أطفال (2 ذكور و2 إناث) كلهم ممدرسون :

سؤال : ماذا تريد أن يصبح الأطفال في المستقبل ؟

جواب (الأب) : **سيصبح الولد طبيبا، والبنت مدرّسة. هل تدرين أن المرأة تلعب الآن دوراً هاما في حياة الزوج، يجب أن تساعده، تصاحبه وتخرج معه أينما كان. أنا أريد أن تكون زوجتي في مظهر لائق، لابسة لثياب جيدة نظيفة، ويجب أن تكون على علم بما يجري، إنني أحكي لها كل شيء، ولا أتخذ قراراً هاماً بدون مشورتها.**

سؤال : ما رأيك في أولئك الذين لا زالوا يزيدون من عدد الأطفال بدون تحديد، أو مباعدة زمنية ؟

جواب : إنهم لا يفكرون : يجب أن يكون لدينا عدد الأطفال الذي في مستطاعنا تحمل مسؤولياتهم، لا يمكننا الاستهتار و« التفريخ » بدون نهاية. إننا نريد تربية وتعليم أطفالنا، بناتنا وأولادنا، وهذا يكلّف غاليا.

سؤال : لماذا تريدون تربية وتعليم الفتيات ؟

جواب (الأم) : البنات بالأخص !

جواب (الأب) : يجب أن تتعلم الفتاة، بإمكانها أن تعمل وتساعد زوجها، وإذا لم تكن لديه إمكانات كافية، يجب أن تساعده المرأة اقتصاديا.

من خلال هذه الاستشهادات يتصح لنا أن دور المرأة وتعليمها أو أميتها يلعب (وسيلعب في التسعينات) دوراً مركزيا في توطيد الفروق الطبقية وتكريسها. إن العائلات القروية بما فيها الرجال والنساء، ترى أن الأدوار التقليدية للجنس أضحت مُتجاوزة، وهي تعيش وتختبر الادوار الجديدة، فعلى النقيض من المرأة التقليدية التي لا تُتَصَوَّرُ إلا بما لها من قدرة على الانجاب والاعتناء بزوجها، والتي تسعى ما أمكن للحصول على أكبر عدد من الأطفال بأي ثمن، فإن زوجة الفلاح الميسور تميل إلى انشغالات أخرى، يقتسمها معها زوجها، وتحدد حياتها : اهتمامات الصحة، التسلية الخ.

ويجب أن نتذكر أن من أهم المكتسبات العصرية التي هزت بنية العائلة التقليدية، هي بروز الثنائية (Le couple) كعنصر مستقل في أسلوب عيشه وقراراته، فالتبعية للزوج في العائلة الأبوية كانت دائما وقبل كل شيء تبعية تجاه والديه، وفوق ذلك تجاه القبيلة أو الجماعة الذكورية، حيث الزوجة الشابة كانت مُلزَمة بأن تكون مهمشة. لذا كان من أحد مكتسبات الحداثة المعيشة والمُدَافَع عنها بشدة من طرف النساء، كيفما كان انتاؤهن الطبقي، هو مطلب إقامة مستقلة عن الوالدين والاعتراض على سلطة الحماة. والحال أن إثبات نظام الثنائية يعاش كانتصار للمرأة الشابة ضد والدي الزوج،حيث أصبحت هذه المرأة داخل العائلة البورجوازية الصغيرة مشاركة لزوجها في التسيير والتقرير، بما في ذلك المجال الاقتصادي.

إن موقف الرجل إزاء الزوجة، ولا سيما إزاء طاقتها الاقتصادية، ومشاركتها في القرار، أو

ابعادها عنه، أصبح عنصراً أساسيا في تشكيل الطبقات الاجتماعية في مجتمعنا المغربي. ويمكن تقسيم المواقف إلى قسمين :

1 ـــ موقف العائلة الميسورة التي تستثمر في طاقة المرأة الاقتصادية ولا سيما تكوينها وتشغيلها ومشاركتها في القرارات، فتصبح المرأة في هذه العائلة عنصراً يساهم في ميزانية العائلة من خلال الأجر وكذلك في تسيير الشؤون المنزلية وتعليم الأطفال.

2 ـــ بينما نجد أن العائلة الفقيرة تساهم في تفقير نفسها بتجميد طاقات نسائها وإهمال تعليم بناتها.

ويبين البحث الوطني الذي أجري من طرف معهد الإحصاء سنة 1974 أهمية الطبقة الاجتماعية في علاقتها مع المسؤولية الاقتصادية للمرأة. وحسب هذا البحث فإن 41 % من أرباب العائلات المنتمية إلى الشرائح العليا يوافقون على عمل المرأة خارج المنزل، في حين أن نسبة 25 % فقط المنتمية إلى الطبقات الوسطى هي التي تستحسن هذا الأمر. أما فيما يتعلق بالفئات المعوزة فإنها تعارضه بأغلبية 67 %، وأقلية من 14 % هي التي تتقبله[8].

ويندرج دوار بكارة في هذا الاتجاه الوطني العام «بعكسه»، فنجد نفس الجمود والعداء لدى أرباب الأسر الفقيرة تجاه عمل المرأة وتَعَلُّمِهَا. ذلك أن العمل المأجور في التصور الشعبي، يؤدى إلى تعاطي البغاء. إن هذه الانشغالات لا تطرح إلا بالنسبة للأب المُعوِزِ العاجز عن أن يوفر لبناته الحد الأدنى من الرَّغَدِ الحيوي لتجنيبهنَّ « المغامرة ». وذلك لأن خطر البغاء بالنسبة للشابة يرتفع مع ازدياد فقرها وعدم استقرار حياتها التكوينية والمهنية والزوجية.

أبرزت المقابلات نقطة أخرى جد غريبة، وهي أن الآباء الفقراء يقدّمون المحافظة على بِكَارة الطفلة كحاجز أمام تمدرسها، بينما لا يذكرها الآباء الميسورون أبداً. فما معنى هذا الاختلاف فيما يَخص موقف الآباء إزاء البِكارة ؟ يمكننا (في غياب بحث ميداني حول الموضوع) تقديم عدة تخمينات لتفسير هذا الموقف :

التخمين الأول : ان الأب الميسور يوفّر لابنته وسيلة نقل منتظمة، وبالتالي فهو يضبط تحركاتها ويقلل من الأخطار، التي تتعرض الطفلة الفقيرة، التي تجد نفسها مرغمة على اجتياز عدّة كيلومترات للذهاب إلى المدرسة.

التخمين الثاني : إن هذا الطابو يتدخل كحاجز أمام تمدرس الفتيات، ولا يتم التذرع به إلا في حالة العائلات الفقيرة، حيث لم تقع ـــ وبدون استثناء ـــ أية محاولة تمدرس الإناث من الأطفال.

ونرى من خلال هذا، كيف أن التبريرات ذات الطابع التقليدي تُقنّع العوامل ذات الطابع الاقتصادي المحض، وكيف أنه يتم التذرع « بالتقليد » قصد تبرير عدم تمدرس الفتيات. زد على ذلك مشكل بُعد المدرسة، الذي لا وجود له على صعيد دوار بكارة، لأنها توجد وسطه.

كخاتمة لموضوعنا هذا، أي تطور العلاقات بين الجنسين، يجب توضيح الفروق حسب الأجيال، ذلك أن الشباب الممدرس في ثانوية سيدي سليمان (وهي الثانوية التي تجمع

الناجحين من الابتدائي في المنطقة) يُعبّر على مستوى الكلام على الأقل، عن مواقف أكثر تقدماً من جيل الآباء. ونسجل أن الدينامية تصل في هذا المجال إلى حدّ امحاء الفوارق الطبقية على صعيد الأجيال الجديدة، فغالبية المراهقين كيفما كان مستواهم الاجتماعي — الاقتصادي، يعتبرون التغيّرات في وضع المرأة كشيء إيجابي.

ولقياس أهمية السّنّ في ادراك موقف ودور المرأة، وبالتالي العلاقات داخل العائلة، طلبنا من 115 شاباً وشابة من ثانوية سيدي سليمان، الإجابة عل الأسئلة التالية : « ما هي العائلة المثالية في نظرك، التقليدية أم العصرية ؟ هل يجب أن تعمل المرأة أم لا ؟ هل المرأة مساوية للرجل أم يجب أن تخضع له ؟ » فكانت الأجوبة كالتالي :

	عائلـة عصريـة				عائلـة تقليديـة			
	امرأة عاملة خارج البيت		امرأة لا تشتغل خارج البيت		امرأة عاملة خارج البيت		امرأة لا تشتغل خارج البيت	
	المرأة مساوية للرجل	المرأة يجب أن تخضع للرجل	المرأة مساوية للرجل	المرأة يجب أن تخضع للرجل	المرأة مساوية للرجل	المرأة يجب أن تخضع للرجل	المرأة مساوية للرجل	المرأة يجب أن تخضع للرجل
ذكور	17	5	15	20	5	0	6	2
إناث	21	0	8	1	3	0	2	2
المجموع	38	5	23	21	8	0	8	4
المجموع	43		44		8		12	
	(% 81) 87				(% 18) 20			

ملحوظة : 107 جواب من مجموع 115 مستجوب ومستجوبة

يظهر أن الشباب يميلون إلى العائلة العصرية كنموذج وأن 50 % من المبحوثين كيفما كان الجنس يحبذون عمل المرأة خارج المنزل. وهكذا إذا فصلنا النتائج نلاحظ أن 38 % من الرجال الذين يريدون عائلة عصرية لا يتمنون أن تشتغل نساؤهم خارج المنزل، وأن 43% يريدون أن تكون المرأة خاضعة لزوجها.

وعلى عكس ذلك فإن 30 % من النساء اللائي اخترن العائلة العصرية، يعتقدن أن المرأة يجب ألا تعمل خارج البيت، ولكن ذلك لا يمنعهن من المطالبة بالمساواة في المعاملة، حيث 96،6 % من النساء يعتقدن أن المرأة يجب أن تكون مساوية للرجل مهما كان موقفها من

العمل. وبشكل عام، من الواضح أن فكرة المساواة بين الزوج والزوجة داخل العائلة، وهي فكرة معاكسة لروح وجوهر وقواعد العائلة الإسلامية، قد اكتسحت أوساط الشباب : 61،4 % من الرجال و 91،8 % من النساء، يعتبرون المساواة بين الزوجين كشيء مثالي، كيفما كان رأيهم حول عمل المرأة.

4 ــ القضية الثالثة : الكهربة كوسيلة لتكوين وتعليم الشباب والأطفال من خلال التلفزة

تُلتمس الكهرباء من طرف الجميع، كخاتم سحري يحل عدداً لا نهائيا من المشاكل، فالفلاحون كيفما كانت طبقتهم الاجتماعية، يعانون الحرمان من الكهرباء كظلم، كَبَتْرٍ شديد الألم لا يرون له تبريراً، وتُبرز المقابلات بكيفية خاصة هذه النقطة، كما تُبرز التعطش الكبير للاعلام والتعليم : « فيما يتعلق بالإضاءة، فإننا نعيش في فصل الشتاء داخل منازلنا كالحيوانات، حيث يسود الظلام طيلة اليوم، ولا يمكننا الهروب من هذا الظلام بسبب المطر والوحل، ولو كان هناك تنت. صباح بالمسجد، لكُنّا نذهب للالتقاء فيه وتغيير الجوّ. هل تدرون لماذا لا ينجح أطفالنا في المدرسة ؟ إنه زيادة على انعدام وسائل النقل، فهناك انعدام الكهرباء كسبب ثانٍ، ولا يتوفرون عليها سواء بالمنزل أو المدرسة، ففي فصل الشتاء يبدأ سقوط الظلام منذ الساعة الرابعة. أما بالمدينة فيتابع الأطفال دروسهم في المدرسة إلى الساعة السادسة وبإمكانهم الاستمرار في انجاز واجباتهم المدرسية بالبيت. إننا الآن نساهم جميعا لشراء شموع للمدرسة. ولكن بإمكانكم تصور ما يمكن أن نشاهده على ضوء أربع شمعات، في قاعة تضم أربعين تلميذاً، إنما الحرمان الأكبر يظل قائما تجاه التلفزة. لو كنا على الأقل لا ندري بوجودها ولكن عدة أفراد بالدوار يملكونها، إنهم يُفْلِسُون لشراء هذا الجهاز، ويفلسون أكثر لاقتناء البطاريات ولكن التلفزة ذات أهمية قصوى إلى درجة أن الضعفاء أمثالي يفكرون بدورهم في شرائها.

سؤال : لماذا للتلفزة والراديو هذه الأهمية الكبيرة ؟

جواب : إنه شيء حيوي، بالنسبة لأناس ليست لهم أية وسيلة للاطلاع، فالتلفزة تعلمنا، وتعلم النساء والأطفال، نشاهد عبرها كيف يعيش الآخرون. فهناك أطباء يشرحون الأمراض، وهناك محامون يشرحون القانون. بها نعرف ما يجري بالبلاد، هناك وزراء يوضحون مشاكل الأرض، والاصلاح الزراعي، وبناء السدود، والمدارس والطرق. إنها أمر حيوي، أحسّ معه أنني أصبح إنساناً، وأنني معنيٌّ بشؤون البلاد، وأشعر بواسطتها أنني غير معزول وأحيا في الدنيا، وأنني بدوري أجمع المعارف الضرورية التي أوجدها العلماء. لقد تحدثت عن نفسي ونسيت الأطفال، والأمر بالنسبة لهم أهم، حيث المدرسة لا تسير هنا كما يُرجى منها، فعلى الأقل يلج الطفل عبر التلفزة إلى الإعلام والاطلاع، حتى لا ينمو منقطعا عن العالم مثل والده. لا شيء بيدنا يمكن أن نقدمه لأطفالنا، نحن أميون ليس بمستطاعنا أن نعلّمهم شيئا، ولكن يمكننا على الأقل أن نشتري لهم التلفزة، على الأقل التلفزة... !، إذا لم يكن بمقدورنا إطلاعهم فلنضمن لهم ذلك من خلال التلفزة. لذلك فإن الفلاحين، حتى المدقعين منهم، يختلسون ثمن البطارية

من عيشهم اليومي. لم يعد اليوم كافيا للانسان أكل الخبز، بل يجب أن يلتهم التلفزة، الاعلام، التعليم. يجب أن يعرف كل ما يعرفه سكان المدن وإلا فإن هؤلاء سيستمرون في استغلالنا ومعاملتنا مثل البهائم.

« يمكننا تأدية مصاريف الكهرباء مثل الجميع، إننا نؤدي الضرائب عن كل شيء، السيجارة، الدراجة وأعواد الثقاب... لماذا إذن لا يزودوننا بالكهرباء ؟ بيننا العديدون الذين يضيعون الكثير من المال لشراء البطارية للمذياع، والآن نشتريها لأجل التلفاز وذلك أغلى ثمنا. سيكون الأمر أقل تكليفا لو كانت الكهرباء لدينا. إننا يمكننا بالكهرباء القيام بعدة أمور .. سيدة عمرها 28 سنة، لها أربعة أطفال، زوجها حلاق **(يكتري أربع هكتارات كل سنة لأنه لا يملك أرضا).**

من خلال هذه الاستشهادات نلاحظ أن العائلة الفلاحية تنظر إلى وسائل الإعلام كعنصر مركزي لسياسة التعليم والتكوين. فبالنسبة لها، ليست التلفزة مجرد أداة للتسلية، بل هي وسيلة لاقتناء المعلومات والتفتح على العالم، بما فيه النخبة المسيرة للبلاد وقرارات التخطيط وأسرار التكنولوجيا. بالتالي تعاش التلفزة من طرف الفلاح كمدرسة في متناوله، تُدفِّق معلومات في منزله، حيث يشاركه في الاستفادة منها الأبناء والزوجة. ويجب هنا أن نقارن موقف العائلة الفلاحية ازاء التلفزة، وهو موقف شبه تقديسي لها، بموقف العائلات في المدينة، الذي هو موقف نقدي صرف. فهذه الأخيرة تتقبل برامج التلفزة بتشكك متزايد حيث تطعن في نوعية البرامج ولغتها (الفرنسية مثلا) ونوعيتها ومضامينها.. ، بينما لا نجد هذا التشكك عند عائلات بكارة. فهل معنى ذلك أن الفلاح الغرباوي لا يتوفر على وعي نقدي إزاء وسائل الاعلام ؟ يجب تفسير موقف هذا الفلاح في سياق العزلة الثقافية والسياسية التي يعيشها، حيث ليس هناك مقاهي أو أندية أو حتى مساجد للتجمع وتبادل الآراء.

كيفما كان الحال فإن استشهادات ومواقف العائلة الفلاحية تبرهن على تعطّش كبير من لدنها إلى الانفتاح على العالم العصري وأفكاره وتياراته وقراراته ومعلوماته، وهذا التفتح غير ممكن في نظرها، في غياب التجهيز الكهربائي وتوابعه داخل المنازل.

خاتمة عامة للخطاب الفَلَّاحي :

إن الفكرة المحورية في الخطاب الفَلَّاحي، التي تبرز من خلال معالجة الفلاح لقضايا الصحة والمدرسة والتشغيل ووسائل الإعلام، هي أن الحلّ شاملٌ وجذري، وليس جزئيا وسطحيا. بالنسبة له تتطلب الحُلُول تغييراً جذريا وبنيويا للبيئة القروية. فالصحة بالنسبة له تتطلب زيادة على ارتفاع عدد المستوصفات ومراكز التطبيب، تصفية الماء وتوفير منازل وأزقة مجهزة ونظيفة. والتعليم يتطلب زيادة على بناء وتجهيز الوحدات المدرسية، تنظيم شبكة نقل تُسهِّل ذهاب التلاميذ من منازلهم إلى المدارس والثانويات، أو توفير داخليات لمن تبعد سكناه عن المدرسة، إن تعميم التعليم والتكوين يتطلب، في نظر العائلة الفلاحية، كهربة المجال القروي، حتى يتوفر لها وقت للتسلية في المساء، ومشاهدة التلفزة أو الاستماع إلى المذياع... الخ.

كخلاصة لهذا القسم الأول من البحث يمكننا أن نردد مع المرحوم السلاوي أن « العروبية مطورين » كما يردد ذلك الآباء في بكارة : فهم يرفضون التنمية كما هي الآن ويعطون تفاصيل التنمية المناسبة لتطلعاتهم، ولا ينقصهم لتحقيق أمانيهم إلا مخطط يحترم آراءهم ومطالبهم ويبذل الجهود لتحقيق تصوراتهم للتنمية الناجعة.

«دراسة حالة دوار سيدي عدّي (آيت واحي) بمنطقة آزرو»

تمهيد : العوامل التي حددت اختيار جماعة آزرو :

تتحدد العوامل التي جعلتنا نختار جماعة آزرو بالأطلس المتوسط فيمايلي :

ــ خصوصية المسلكيات الديموغرافية : توجد لدى سكان الأطلس المتوسط الفلاحين ــ الرُّعاة مسلكيات ديموغرافية متميزة، حيث تُصنَّف ناحية آزرو من بين « المناطق المعتدلة الولادات »، وهي نفس حالة سكان الأطلس المتوسط عموما وملوية العليا. فالعائلات ضعيفة الاتساع ــ 4،3 أفراد في المعدل ــ بالمقارنة مع باقي مناطق المغرب، إلا أن عدم استقرار العائلة أكثر ارتفاعاً (88 % من النساء المتراوحة أعمارهن بين 20 و29 سنة متزوجات، أما الباقيات فهن غالبا مطلقات)[1].

ــ مميزات لغوية وثقافية نوعية : أبانت دراسة الحالة عن تنوع بالغ الأهمية للمميزات اللغوية والسوسيوتاريخية.

ــ وضعية النساء : تعرضت النساء داخل العائلة الزراعية ــ الرعوية لاضطهاد متميّز، ولم تضطلع النساء في مختلف الفئات الاجتماعية بنفس الدور في التغييرات السوسيو ــ اقتصادية التي عرفتها المنطقة.

ــ منطقة للهجرة : هذه الجماعة قائمة في منطقة ضعيفة الكثافة، معروفة تقليديا بترحابها بالمهاجرين.

ــ اقتصاد زراعي ــ رعوي مأزوم : نمو الرأسمالية لازال في بداياته.

لقد تطلب الأمر عدة بحوث ميدانية مطولة لاستخلاص المعطيات المتعلقة ببلدة سيدي عدّي التي تمت بها أغلب البحوث. وقد اتسع البحث ليشمل القرى الصغيرة، بضواحي سيدي عدّي، والمأجورين والعمال الزراعيين الذين تتوزع مساكنهم هنا وهناك.

يوجد دوار سيدي عدي بسهل تيكريكرا، على بعد 12 كلم من آزرو، على طريق خنيفرة، ويقدر عدد سكانه بـ 2000 نسمة (500 منزل) في ضواحي قبيلة آيت واحي، يتكون هؤلاء السكان من عمال زراعيين وفلاحين فقراء ومتوسطين، ورعاة وحدّادين ونجارين وتجار وباعة خضر. وقد قدرت البحوث بأن أقل من 20 % من السكان الذين عمرهم أكثر

من 21 سنة لهم نشاط ما، أما ما تبقى فيتكون من عاطلين لأن عملهم لا تتجاوز مدته بضعة شهور خلال السنة، وفيما يتعلق بالتقديرات حول النساء والأطفال فهي دون الواقع.

ومن الملاحظ أن البغاء واسع الانتشار بسيدي عدّي، حيث عرف خلال العشر سنين الأخيرة انتشاراً سريعا، وغالبية المومسات من أصل فقير، فمن بين 75 مومس نجد 60 من وسط مدقع، وكل يوم تدفع البلترة والاضطهاد العائلي بالمزيد من الضحايا إلى صفوف البغاء.

انطلاقا من هذا التمهيد، يمكننا أن نحدد بشكل أفضل نتائج البحوث التي تعبّر عن رؤية مختلف الطبقات والفئات الاجتماعية المندمجة والمساهمة في حركة التطور الواسعة. وعلى عكس المنهج الذي اتُّبع بمنطقة الغرب فإن التحليل لم يتم انطلاقا من فئات المخَاطَبين (المستجوَبين) ولم يُجمَّع الخطاب الفلاّحي في جانب وخطاب الأطر في جانب آخر، بل قُسِّم التحليل على موضوعات أساسية كالآتي :

— التغيرات التي حدثت داخل الأسرة نتيجة عملية الاستقرار.

— تطور التنشئة الاجتماعية : تفاقم التمييز الثقافي والهجرة.

— الحاجيات الجديدة المرتبطة بالصحة وانعدام مسايرة بنيات المصالح الصحية لها.

لهذه الموضوعات انعكاسات متميزة الأهمية على المواقف تجاه مشاكل السكان.

أولا: معطيات عامة :

أ — الاستراتيجية الاستعمارية : تحطيم أسس الاقتصاد الزراعي — الرعوي.

أقام برابرة صنهاجة منذ عدة قرون بالمناطق الجبلية للمغرب، مع « المسارات » الموسمية للانتجاع (أماكن الكلأ التي ترتادها المواشي)، وتبيّن الشواهد التاريخية الأولى، أن هذه المسارات مثبتة بالأطلس المتوسط وناحية آزرو في القرن الخامس عشر، مع ما نتج عن تيارات الهجرة التي انطلقت من واحات الجنوب العالية الكثافة. وقد عرفت ناحية آزرو مرحلة طويلة من الاضطرابات المُثارة غالبا بسبب رفض السكان لدفع الضرائب المفروضة عليهم من قبل السلطة المركزية. وفي القرن التاسع عشر، ازدادت خطورة هذه الاضطرابات بسبب تدخل القوى الغربية، وسيستغلُّ المستعمر الفرنسي النزاعات المحلية، لتوطيد دعائم سيطرته، محاولا استغلال مسألة الخصوصية البربرية ضد السلطة المركزية. وقد اعتمدت الاستراتيجية العسكرية للحماية الفرنسية — في هذه المنطقة التي استمرت فيها مقاومة السكان إلى سنة 1931 — على هدم وتفكيك البنيات الاقتصادية والاجتماعية، فحصلت بذلك اضطرابات عميقة في أسلوب حياة السكان الزراعي — الرعوي حيث أدّى استيلاء المعمرين الفرنسيين على أجود أراضي السهول بالسايس إلى طرد المنتجعات من هذه الأراضي وحصرها في مجال لن يَزداد إلا تقلُّصاً فيما بعد.

ب — اتساع العلاقات الرأسمالية وأزمة نمط الحياة الزراعي — الرعوي.

أدت القيود التي يفرضها نمو العلاقات الرأسمالية على الاقتصاد الزراعي — الرعوي إلى إعطاء الأسبقية للفلاحة المتمثلة بالخصوص في زراعة الحبوب. فالنظام الاقتصادي الزراعي —

الرعوي القديم يرتكز على تقنيات بدائية، وتمثل الطاقة البشرية فيه عنصراً أساسيا للانتاج. أما توزيع الأراضي فتتحكم فيه الجماعة التي تسهر على تسليم القطع للأسر المنتمية للمجموعة القبلية ولا يُخَوَّل لتلك الأسر إلا حق الانتفاع. والعائلة الموسَّعة هي الوَحْدَة الأساسية للانتاج، فالنظام الزراعي ـــ الرعوي كان إلى حدود القرن 19 ينظم النشاط الاقتصادي، أساساً من أجل تلبية حاجيات الجماعة العائلية، وسيضاعف قيام نظام الحماية التمايزات الاجتماعية القائمة، وسينال من العلاقات التضامنية القبلية والأبوية القديمة. وإذا كانت قاعدة التنظيم الاجتماعي القديم هي المجموعة العائلية مستعينة بتضامنات قبلية وأبوية، فإنها كانت تحتوي في أصلها على بذور تمايزات اجتماعية كبيرة الأهمية، وإذا كان إشباع حاجيات المجموعة العائلية يشكّل الهدف الأول للانتاج، فإن السكان الزرّاع ـــ الرعاة، لم يعيشوا أبداً في اكتفاء اقتصادي كامل.

في نهاية القرن 19، كان عدد كبير من مربّي الماشية قد أُفقروا وتمّ تشغيلهم كخمّاسين أو رعاة لدى الكسّابين الذين كانت بحوزتهم قطعان من الغنم تعدّ بالآلاف، وساعد اقتصاد السوق على نزع ملكيات عدد كبير من الفلاحين لصالح مُلّاك الأراضي الكبار. وبذلك نشأت صيرورة بلترة السكّان الزراع ـــ الرعاة، حيث عرفت المنطقة في بضعة عقود تحولات سوسيو ـــ اقتصادية بالغة الأهمية وذات طابع نهائي، فدخول اقتصاد السّوق وتقلّصُ مساحات الرعي المتوفرة والتزايد الديموغرافي.. أدى إلى مضاعفة تجزُّؤ الملكيات وتخفيض مساحات المُسْتَثْمَرات العائلية، كما أدّى بالخصوص إلى تفاقم انعدام التوازن الذي خلقه الاستعمار بين الأنشطة الرعوية والزراعية. وقضت هذه الأزمة التي أصابت تربية المواشي على نمط حياة المنتجعين. فنمو البلدات القروية، التي ستصبح نقط تجمُّع للفئات المبلترة (سيدي عدي، آيت يحيى وعلا، بنصميم) مرتبط بأزمة أنماط الانتاج الماقبل ـــ رأسمالية هذه، وازداد تفاقم التفاوتات بين مناطق الجبل والسهل على حساب المناطق الجبلية التي أُفرغت من السكان، إذ نجد مثلا أن أصل 20 % من سكان مركز آزرو من الناحية.

ازداد اتساع العلاقات الرأسمالية في بداية فترة الاستقلال، وكان هذا التوسع محسوساً أكثر في السنوات الأخيرة، فتقلصت الملكية الصغيرة بشكل عام في ناحية آزرو : في سنة 1962 كانت الملكيات التي مساحتها أقل من خمس هكتارات تُمثّل 70 % من مجموع الملكيات بناحية سيدي عدّي (آيت واحي)، ولكنها في سنة 1976 لم تعد تمثل سوى 68 %، وتقوّت على عكس ذلك الملكية الكبيرة والمتوسطة، كانت الملكيات التي تتجاوز 20 هكتاراً لا تمثل سنة 1962 سوى 3،8 %، وأصبحت في سنة 1976 تشكّل 5 % من مجموع الملكيات. كما نمت الزراعة على حساب تربية المواشي التي شهدت جموداً، ففي جماعة عين اللوح، نمت الماشية ب 14،1 % بين 1930 و1976، وفي جماعة ايركلاون لا يكاد نمو هذا القطاع يفوق ذلك إلا بقليل : 15 %، في نفس الفترة التي ارتفع فيها عدد سكان الجماعتين ب 63 %[2].

ثانياً : عملية الاستقرار وتطور العائلة الزراعية ــ الرعوية :

1 ــ النساء يشكّلن الجزء الأساسي من قوة العمل، لكن يحرمن من ملكية وسائل الانتاج.

وإذا كان العمل النسوي يشكّل أساس الاقتصاد الرعوي، فإن المرأة تظل مع ذلك محجورة، ولا تصل الى الحالة التي تسمح لها بالحصول على مرتبة مهمة داخل العائلة الموسّعة، إلا عندما تجتاز مرحلة الخصب، ولكن هذا لا يعني دوما، داخل البيوت الميسورة، وضعا أحسن، حيث إن قدوم زوجة جديدة يظل خطراً قائما. فالمرأة ليست فقط معرّضة لأن تجد نفسها مُعَوَّضةً بزوجة جديدة تحل محلها، بل كذلك للسقوط فعليا في النسيان. فالعرف يسمح للزوج « بترك » (هجر) زوجته، فتعود بذلك إلى بيت والديها أو تظل ببيتها. ومنذ ذلك الحين تصبح، على حدّ تعبير إحدى الفلاحات، مثل « قبر عتيق منسي »، ويأخذ الزوج بالتظاهر بعدم الاهتمام بوجودها، وهو غير ملزم بكسوتها، كما أنه ينقطع عن محادثتها.

إن تعدد الزوجات الشائع الانتشار، كان نتيجة طبيعية لتقسيم العمل بين الجنسين. وإذا لم تكن أية دراسة ديموغرافية تسمح بالتعرف بكيفية دقيقة، حسب المناطق، على المعدل المتوسط للحياة بين الجنسين، فإنه من البديهي أن كل رجل « يستعمل » أكثر من زوجة خلال حياته. إن تقسيم العمل هذا وما يستلزمه من النساء هو ما يدفع ببعضهن إلى المطالبة بالزوجة الثانية لتخفيف عبء الأعمال الشاقة الملقاة على عاتقهن. وإذا كانت المرأة تأخذ النصيب الأكبر في إدارة البيت، فإن العائلة العصبية Agnatique والأبوية Patriarcale، التي تضحي المرأة من أجلها كليا، تمنعها من البلوغ إلى تملّك وسائل الانتاج. وكون المرأة هنا مُبعدة عن ولوج المسار المشترك (أي حرمانها من التمتع بكامل ما تمارسه الجماعة وتنظّم به حياتها) فإنها كذلك محرومة من امتلاك الأرض التي بحوزة العائلة، بالإضافة إلى أن الصناعة التقليدية المنزلية كانت موضوعة على كاهلها، ولا حق لها في امتلاك ثمرة عملها داخل العائلة، وليس بمقدورها أن تكوّن وفراً إلا في حالة تمكُّنها من « اختلاس » بعض المال من ميزانية بيتها الخاص. واذا كان دور النساء على مستوى الانتاج أساسيا، فقد كان لهن تقريبا نفس النظام الأساسي لليد العاملة التي كانت تجلبها العائلة لانجاز بعض المهام، الرعاة، الخماسين الخ، إن العائلة الرعوية قائمة على أساس المحافظة على الملكية الشاسعة (غير المقسّمة) لأدوات الانتاج، وكان هذا يقع على حساب النساء أساسا، فإبعادهن عن الاستفادة من ثمار عملهن، ثم مستويات الوصاية ومختلف التراتبات اللائي يخضعن لها، سيُدرجهن كعنصر جوهري في دينامية صيرورات تغير العائلة الزراعية ــ الرعوية الكبيرة.

لقد حصلت النساء على الحق في ملكية الأرض من الناحية المبدئية، لكن هذا الحق لازال بعيداً عن أن يكون شيئا واقعيا، فوسيلة الاحتيال عليه متوفرة عند أولئك الذين يريدون المحافظة على ميراث العائلة المشترك، فلا زلنا نجد مراراً ربَّ عائلة (بالمعنى الأبوي المشار إليه) يأتي إلى محكمة آزرو لتسجيل قراره بحرمان بناته من الإرث لصالح أولاده وأحفاده وبما أن « الشرع » لا يسمح للواهب بأن يتصرف في أكثر من ثلث التركة، فإن هذا الأخير يلتجىء، لأجل حماية

البنيات الأبوية، إلى سلاح قويّ يتجلّى في البيع الصوري. إن الحق في الإرث سيعمل من ناحية أخرى على إبراز تناقضات العائلة الموسّعة، التي تتبلور بالأخص في الصراعات القائمة بين الأجيال، فالنساء الشابات أصبحن أكثر فأكثر يرفضن العمل لحساب هذه العائلة الكبيرة، ويرفضن كذلك كل أشكال الوصاية الممارسة عليهن من طرف جميع ذكور هذه العائلة(3).

2 ـــ تطلعات ومواقف جديدة... مطالب قديمة :

هناك توترات وصراعات تُمزّق العائلات مع بروز الشخصية الحقوقية للمرأة. فقد أصبحت مشروعية تلك الوصايات متنازعاً بصددها بشدّة من طرف الكنّة (زوجة الإبن)، ولكن مسألة العمل لفائدة العائلة الكبيرة بالأخص هي التي تلاقي اعتراضاً كبيراً من طرف هؤلاء النّسوة الشابات، اللائي يرغبن في توظيف جهودهن، في تربية أبنائهن وتعليمهم : « أريد أن أشتغل من أجل أولادي » « إذا جهدت، أريد أن يستفيد أبنائي، لا أريد أن أظل في كل حين معرّضة لإهانة حماي، ماالذي أجنيه من هذا ؟ » إن دور النساء سيكون هاما في تدعيم وتسريع صيرورة عملية الاستقرار ـــ لأن النظام الزراعي ـــ الرعوي كان يجبرهن على القيام بأعمال مرهقة وعلى مجابهة قساوة المناخ بسبب الإقامة تحت الخيام ـــ كما هو الحال في صيرورة تشتيت الميراث العائلي المشترك. لقد تغيرت الحياة اليومية للفلاحات مع عملية الاستقرار هاته، فبعض مهام تحويل المنتجات الزراعية، مثل طحن الحبوب، لم تعد واجبة عليهن منذ قرابة العشر سنين. ولكنهن لا يشتغلن أقل بالنسبة للاعتناء بالماشية والبيت والأطفال، أما لدى العائلات الميسورة فتشكّل تربية الأطفال وتمدرسهم وسيلة في يد النساء، للافلات من سخرات الحياة القروية القاسية. إن المرأة في هذا الوسط تصبو إلى رفاهية البورجوازية المدينية، وتُؤثِر تربية الأطفال بالمقارنة مع وضعيتها كسيدة بيت. أما في أوساط العمال الزراعيين أو الفلاحين المتوسطين فإن النساء الشابات يرفضن بتاتا تلك السخرات القديمة، ولا يطالبن فقط بوضع مرتفع المستوى والوصول إلى الرفاهية المادية، بل إذا لم يكُنّ هنّ أنفسهنّ عاملات، فإنهن لا يرغبن في ممارسة حياة ربة البيت.

إن الشروط التاريخية، الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، التي حكمت البنيات العائلية في المجتمع الزراعي ـــ الرعوي قد حددت مطالب النساء تجاه مسألة الخصوبة والانجاب. ويظهر أن التحكم في الولادات، كان يشكل في هذه المنطقة ـــ وبصفة أكثر حدة مما يمكن العثور عليه في مناطق أخرى ـــ إحدى الوسائل التي كانت تمتلكها المرأة للدفاع عن نفسها ضد الوضعية الفظيعة التي كانت تعاني منها داخل العائلة الزراعية ـــ الرعوية، هكذا يمكننا تفهُّم الانتشار السريع لوسائل منع الحمل مع أن استعمالها لا يُطَبَّق دوماً بشكل سليم.

3 ـــ البلترة، المهر، الزواج، الزواج المبكر، تكرار زواج الشيوخ وانعدام الاستقرار العائلي :

تَبيَّنَ على ضوء البحث الميداني، بأنه في أوساط العائلات ذات الملكيات الصغيرة المبلترة، يتم زواج الأولاد في سن أصْغر بالنسبة للعائلات المأجورة (أي التي يقوم أفرادها بالعمل

المأجور)، حيث يظهر أن العمل المأجور يؤخر سن الزواج، زيادة على ذلك، فإن العامل إذا أراد إيجاد شغل قار، يصبح عليه أن يكفّ عن الهجرة أثناء موسم الحصاد، ذلك أن مستثمري الضيعات الزراعية يرفضون في أغلب الأحيان تشغيل العامل الذي يتغيب خلال فترة الحصاد. أما في أوساط عائلات مربي الماشية الصغار أو الفلاحين، فإن المال الموفَّر من عمل الحصاد يسمح بالزيادة في الميزانية العائلية، كما يفيد في تأدية مصاريف الزواج.

يعرف المهر حاليا تغيراً في دلالته، ففي فترة ما قبل الاستعمار وأثناءه، كان المهر يُجبى من طرف العائلة التي تعطي ابنتها، مما كان يمثّل بالنسبة إليها تعويضا عن ضياع امرأة. لكن التقاليد الجارية داخل العائلات البورجوازية أخذت تنتشر أكثر فأكثر بالبادية، فهذه الأخيرة تتباهى وتتنافس في تخصيص ضعيف قيمة المهر المدفوع من الرجل، على الأقل، لاعداد جهاز لابنتها. أما جهاز الفلاحة الفقيرة فيظل رَغم ذلك متواضعاً جداً، ولكن مسألة ضرورة تجهيز الأب لابنته أصبح عنصراً جديدا يغير العلاقات بينهما. إن ما يتقبّله الاب من ناحية أخرى، كتضحية من أجل ابنته هو وثيق الصلة بنوع الرباط الذي يرغب في إقامته من خلال الزواج، والزواج المرغوب فيه بالنسبة للفتاة يتجلى في ذاك الذي يتم مع رجل يقطن في المدينة.

إن الصراع من أجل الحفاظ على ملكية وسائل الانتاج ــ وملكية الأرض على وجه الخصوص ــ يفسد أكثر فأكثر هذه العلاقات، فالعديد من الآباء يحاولون حرمان بناتهم من الارث بواسطة طرق غير مباشرة : وضع وصايا لصالح الأبناء والأحفاد، البيع الصوري الخ... احساس بالمرارة، غيظ، توترات وصراعات، انحطاط صورة الكهول في أعين الشباب، ذاك ما تُبرزه أغلب المقابلات، فقد أصبحت الحياة العائلية تبدو كما لو أنها منخورة بسبب التوترات والتآكل اليومي، ومن خلال ما يجرى داخل العائلة يشعر الكثير من الشباب القروي بالتناقضات الاجتماعية. وإذا كانت علاقات ديموقراطية شيئا ما قد أخذت تنشأ داخل العائلات، فإنها لا زالت جنينية، ولا زالت كل شوائب نظامي الاقطاع والأبوية عالقة بها.

يُقدَّم الزواج المبكّر بالنسبة للعائلات الفلاحية كمخرج للفتيات اللاتي لم يتمكَّنَّ من الحصول على أي تعليم، واللاتي لا يمكنهن نشدان أي تكوين مهني، وهكذا يجري كذلك زواج الفتيات مع الشيوخ. فشيوع زواج الشيوخ هو إحدى ويلات العائلة الرعوية المؤسسة على تعدد الزوجات. أحد الوجهاء تزوج في الثمانين من عمره بفتاة عمرها 16 سنة. وهذه الحالة بعيدة عن أن تكون استثنائية، فغالبا ما يقوم أبناء رب العائلة (الأبوية) الأولون بتطليقه من إحدى زوجاته أو بإحضار أخرى إلى البيت. إن أولاد الجيل الأول داخل هذه « العائلة ذات الطبقات » يديرون المزرعة، ويتحكمون في إرادة والدهم كما يشاؤون. ويظهر أن الافتراقات بين الأزواج ليست ناتجة دوما عن إرادة الزوج الخاصة بل ناتجة كذلك عن وسطه، وحسب رأي بعض موظفي العدل، فإن عدد تسجيلات الزواج يساوي تقريبا عدد تسجيلات الطلاق، ومن الأكيد أن هذا الرأي مبالغ فيه، ولكن بما أن عدداً هاماً من حالات الافتراق غير مسجلة، فهذا يبين إلى أي حدّ وصل انعدام استقرار بنية الزواج. وبالعكس، هناك بعض النساء يحاولن كل مرة تحسين وضعيتهن بمحاولة أخذ مكانة داخل عائلة أكثر يُسراً(4)

4 ــ البغاء : أحد عناصر البنيات القروية :

إن بلترة شرائح اجتماعية عريضة يقلل من حظوظ استقرار العائلة، فبالنسبة لتلك الشرائح لم يعد هناك أمل معقود على الزواج، لأن المؤسسة العائلية لم يعد بإمكانها أن تضمن للمرأة دورها التقليدي. ومن الآن فصاعداً، إذا كان على المرأة أن تواجه انعدام الاستقرار العائلي، فإن الزواج لم يعد بالنسبة إليها سوى محاولة لاستثمار رمز للاندماج الاجتماعي داخل العائلة الأبوية، في وقت أصبح هذا الاندماج يشكل في الواقع معضلة، بل يستحيل أمام بعض النساء فيفتح أمامهن طريق البغاء أكثر فأكثر. وإن ما يدفع المرأة إلى البغاء ليس الاضطهاد الأبوي داخل العائلة وحده، فالعمل المأجور لا يجعل قوة عملها سلعة فقط، ولكنه يجبرها على بيع جسدها مقابل أجر يساوي الحد الأدنى للاجور في القطاع الفلاحي، وهنا نجد أحد مظاهر انهيار أسس العائلة القديمة، منذ بداية هذا القرن.

ثالثاً : التنشئة الاجتماعية، تفاقم التمييز الثقافي والهجرة :

إن تطور التنشئة الاجتماعية، عبر مختلف المؤسسات وخاصة المدرسة، يُترجم في العمق نموّ التناقضات الاجتماعية ويفتح مجال الهجرة، ولقد جمع البحث هنا أيضا، النقط التالية، المتميزة الدلالة :

1 ــ رفض المدرسة الاستعمارية كأداة للاضطهاد :

إن وجود علاقات متقطعة مع السلطة المركزية، لم يكن أبداً يجعل العناصر القائدة والمنظِّمة للحياة الاجتماعية بحاجة لأن تكون « مثقفة »، فالفتيان كانوا يُدرَّبون منذ طفولتهم المبكرة على حراسة القطعان، بعد ذلك كانوا يقومون بمهام الحرث والحصاد، ثم عليهم أن يتمرنوا ليصبحوا فرسانا مهرة، أما الفتيات فكُنَّ يحرسن الماشية بمحاذاة الخيمة، ويتدرّبن على أشغال البيت... ولم يكن لابن الرّاعي في الماضي نفس ظروف الحياة التي كانت لابن الوجيه، وإذا كان هذا الأخير يتمتع بتغذية جيدة ورعاية أحسن، فإن عالمه الثقافي مهما كان مطبوعا بالتراتبات الاجتماعية، فقد كان هو نفس عالم ابن الراعي. إلا أن استيلاب الهيمنة الاستعمارية لمجموعة من الوجهاء، ستضع حداً لهذه الوضعية، خالقة بذلك عملية ستُفاقم التمييز الثقافي بين أولئك الذين تمكنوا من الولوج إلى المدرسة وبين الذين ظلوا أميين.

وكان ينظر إلى المدرسة الاستعمارية كأداة للهيمنة، فغالبا ما كان سكان الأطلس يرفضونها: حسب ذكريات الشيوخ الكبار، فإن بعض العائلات كانت تلجأ إلى حِيَل معقدة لتجنيب أولادها من الدخول إلى هذه المدرسة مثلما فعل أحد الوجهاء الذي أدّعى أن ابنيه أصمَّين أبكمين. وتحت نظام الحماية الاستعمارية كان التعليم مجزأ ف « الثانوية البربرية » مثلا كانت مخصصة لأبناء الأعيان، كما كان تعليماً أُحادي الجنس، لا مجال فيه لتعليم الفتيات، ولم يكن التعليم خلال هذه المرحلة يهدف نهائيا، إلى تحسين وضعية المرأة، ولا إلى تحرير المغاربة، كما يظهر ذلك من خلال دورية وزارية في سنوات 1930[5]. وبتأثير من الحركة الوطنية نشأت مدرسة مختلطة بأزرو في الخمسينات، أقفلت من طرف السلطات الاستعمارية، واستقبلت « مدرسة للبنات المسلمات » فتيات هذه البلدة القروية، وكُنَّ يوجهن حسب الأصل

الاجتماعي إلى شُعبِ الأعمال اليدوية : النسيج، الطرز... وظلت المدرسة القائمة حاليا خاضعة إلى حد ما هذه النماذج الأصلية، مع أنها فتحت أبوابها أمام عدد أكبر من الفتيات الفقيرات.

2 ــ وجهة نظر المدرسين، أزمة بنيات السلطة : الأب /المربّي :

من خلال بعض مقاطع المقابلات، الكبيرة الدلالة، ستتضح هذه النقطة : « من الأفضل ألا يظل المدرّس زمنا طويلا بالقرية، حين يصبح مقرّبا من التلاميذ، يعتبرونه كفرد من أهل القرية، وبالتالي لا يمكنهم تعلُّم شيء وحين يكون المدرّس جيداً، يكون متشدداً، كما أن الأطفال يدرسون جيداً لأنهم يخشونه ». « حين يلتقي تلميذ بالثانوي مع أستاذه في المقهى، يلعبان الورق ويدخنان معاً، فإنه لا يمكن أن تبقى للاستاذ أي سلطة عليه، يجب على هذا الأخير أن يجتنب الحديث في بعض المواضيع مع التلميذ، لأن التلميذ لن يعود لاحترامه أبداً. لقد انعدمت الأخلاق وانعدمت القدرة على التحكم » « حين يأتي الاستاذ إلى هذه القرية، فإنه يُساعد من طرف الجميع. ولكن أولئك الذين لهم إمكانية إرسال أبنائهم إلى المدينة هم الذين يحصلون على نتيجة ما ».

بالنسبة لظروف التعليم، فإنها موضع عدة انتقادات متكاملة : « الطرق غير مسايرة، حيث من الصعب على التلاميذ أن يفهموا بشكل صحيح ما نعلّمهم، فالعلم المدرسي بعيد جداً عن الوسط الذي ينمو فيه الطفل. أغلبية الأطفال في هذه المدارس لم يسبق لهم زيارة المدينة أبداً، لكن الكتب المدرسية لا تتحدث لهم إلا عنها. إننا في عالم والتلاميذ في عالم آخر، ليست هناك أية وسيلة لتلقينهم دروساً تقرّبهم مما يعيشونه أو تجعلهم يتواصلون مع العالم الذي تتحدث لهم عنه المدرسة ». « إن طرق تعليمنا بالية. لا ندري ما الذي نقوم به، الأطفال في واد ونحن في واد آخر. فالطفل لم يسبق له أن وضع قدمه في حافلة للمسافرين، ونحن لا نتحدث في الدروس إلا عن الطائرات والقطارات والمطارات. إن الطفل غريب تماماً عن اهتمامات المدرسة. يجب أن ترى الدروس الدينية، كم هي مصطنعة ومجردة بالنسبة لعقل الطفل. ومع ذلك نندهش لكون الأطفال ينفرون أكثر فأكثر من المدرسة ! لا شيء يجذبهم إليها، لا شيء في مستوى سنهم. إننا نفرض عليهم قطيعة كبيرة جداً، لكننا لا نقدم لهم أية قاعدة يمكن أن تساعدهم. **الأطفال ثاقبو الذكاء لكن ما نلقّنهم بعيد عنهم جداً**. لقد بدأ أبناء الفقراء يقولون انهم لن يتمكنوا من شيء. ولا داعي لتضييع الوقت، في حين أن أبناء الأغنياء يتمكنون من تدبُّر الأمر لأن الوسط يشجعهم ». « أبناء الفلاحين الفقراء لا يتعلمون، فهم يتخبطون في ظروف حياتية صعبة : في بداية السنة يكونون 50، وفي وسطها ينخفض عددهم إلى 30 تلميذا بل وأقل. في حالة الأب الفقير، يدخل الطفل إلى المدرسة سنتين أو ثلاثاً، وبعد ذلك يأخذه أبوه لكي يساعده أو ليصبح راعيا. في حين يتابع أبناء الأغنياء، هؤلاء هم الذين يدرسون، ولهذا السبب **فإن المدرسة بالبادية خديعة كبرى**. في المدارس البعيدة الأمر أعوص، حيث يقطع الأطفال ثلاثة كيلومترات أو اربعة للذهاب إلى المدرسة، في فصل الشتاء، تحت المطر لا لباس جيد يقيهم ولا تغذية جيدة تساعدهم، وغالبا

ما يكون عليهم أن يحملوا معهم بعض الأكل، حيث أن وجبة المطعم المدرسي رديئة للغاية، لا يستطيعون أحيانا تناوله ». إن أبناء البورجوازية الصغيرة القروية لا يتمكنون من مجابهة مصاعب المدينة، وبالأخصّ نتيجة ظروف سكناهم غير القارة والصعبة التي تعترض كثيراً حظوظهم المدرسية.

3 ــ تفاقم التميز الثقافي على حساب أبناء الفلاحين الفقراء ــ عامل الجنس :

هذا العجز لدى الفئات المبلترة من الفلاحين، عن الوصول إلى المدرسة، كثيرا ما يفجّر لدى الآباء الفاقدين لكل شيء، بعض العنف تجاه أبنائهم الذين يهربون من المدرسة، أو الذين يحصلون على نتائج دراسية سيئة. ويحكي تلميذ بالثانوي مايلي « جاءت امرأة من معارفنا لزيارتي صحبة طفلها، وطلبت منه أن يحدثني عن نتائجه في الامتحان، فقال لي بأن درجته في الترتيب كانت 43، وسألتني إن كانت النتيجة جيدة، وحين أجبتها بالنفي، ارتمت عليه بالضرب المبرح ».

وإذا كانت النساء لم تتحررن كليا من السخرات القديمة، فإن هذه الأخيرة قد أضحت أقلّ إكراها، ابتداء من اللحظة التي سهلت فيها بعض أدوات التجهيز عبء الأشغال المنزلية، فظهر بذلك عند الأمهات اتجاه لاستثمار طاقاتهن لأجل أطفالهن. وكونهن ضحايا للعائلة الأبوية، فانهن يحاولن الانعتاق من وضعيتهن بهذا التوظيف لجهودهن في تربية الأطفال. ويؤثر البغاء كرادع للتطلعات نحو التغيير، خاصة فيما يتعلق بتكوين وتعليم الفتاة. كما تشكّل البنات الصغيرات، بين 8 و12 سنة، يداً عاملة رخيصة في زراعة الخضر والمغارس، فهنّ يعملن بسرعة كبيرة، ويتكيفن مع مهامهن. فابتداء من شهر مايو يُشاهدن محشورات في الشاحنات، ذاهبات إلى إحدى المزارع أو عائدات منها في المساء. وبصورة عامة فإن بنات العائلات الميسورة بالأخص، هنّ اللائي يرين أبواب المدرسة تنفتح أمامهن ومن أجلهن.

رابعاً : الحاجيات الجديدة فيما يتعلق بالصحة والتربية الجنسية :

إن تحليلا سطحيا يمكن أن يسمح بالاعتقاد بنوع من القدرية تجاه مشاكل الصحة، وبمواقف كثيرة التشكك تجاه الطب العصري، ولكن إذا تجاوزنا هذه الانطباعات الأولية، سنتيقن بأن الاهتمامات فيما يتعلق بالصحة تطرح دوما بكيفية جد ملحة. لقد عبّر المستعملون للطب والعاملون به عن وجهات نظرهم التي تضمنها البحث على الشكل التالي :

1 ــ تغير المواقف بخصوص الممارسات التقليدية، صحة الأم، التخطيط العائلي والتربية الجنسية.

تغيّر الموقف جذريا خلال السنوات الخمس وعشرين الأخيرة. بخصوص الطب العصري، فالمستوصف، المستشفى، التلقيح، أصبحت جزءاً لا يتجزأ من تطلعات العائلات إلى الحياة الكريمة، وبالفعل فإن الشعور بالحاجيات الصحية أصبح أكثر حدّة من طرف النساء بالخصوص. بالنسبة للفلاحات الشابات اللائي يعتبرن الولادة كعبء ثقيل، لا سيما وأن ظروف الحياة مضنية، ويفتح الطب العصري باب الامل فيما يتعلق بوسائل منع الحمل. أما

زوجات العمال الزراعيين اللائي لهن أكثر من 35 سنة فلا يحاولن استعمال الوسائل الحديثة لمنع الحمل إلا بعدما تنجبن 5 أو 6 أطفال. عكس النساء اللائي لهن أقل من 30 سنة، فهن يجربن وسائل عصرية عديدة لمنع الحمل بدون استعمال الوسائل التقليدية.

وبسبب انعدام تعميم ملائم لهذه الوسائل، واعتباراً لتباطؤ الاجراءات في المستوصفات، وبعد المسافة، وقلة الوقت والمال، فإن الخدمات الصحية بعيدة عن تلبية طلبات التخطيط العائلي، وكثيراً ما تعود النساء، نتيجة لذلك إلى الوسائل التقليدية. أما الأمراض الزهرية، فليست هناك وسيلة للتعرف على مداها وسعة انتشارها، غير أن تأثيرها على الحالة الديموغرافية قد وقع تسجيله من طرف بعض الباحثين(6). وتجدر الاشارة إلى أنه غالبا ما تؤدي بعض الأدوية التقليدية والجهل بالنساء إلى العقم. وفيما يتعلق بمحاولات الإجهاض فإنها كثيرة حتى بالنسبة للمتزوجات، وذلك بابتلاع النباتات العطرية (العشوب)، أو إدخال مواد كثيرة التنوع في الجهاز التناسلي، تكون لها انعكاسات مأساوية على صحة المرأة.

إن توفير تربية جنسية أفضل للنساء الشابات، عبر مراكز تعليم وتربية الشباب، ومراكز محاربة الأمية، والمستوصفات أو المراكز الجماعية المتعددة المهام. وكذلك القيام بهذا إزاء السكان الممدرسين في باب التربية الصحية بتلقينهم تربية جنسية مدمجة في دروس البيولوجيا أو العلوم، يمكن أن يسمح بالمساهمة في حل مختلف المشاكل، كما أن موضوعات مثل علم الصحة، الأمراض الزهرية وانعكاساتها على حياة الزوجين وعلى الخصوبة والوراثة، البغاء وبُعده العائلي، الاجتماعي والثقافي، التعقيم الخ... يمكن ادخالها في البرامج أو الأنشطة.

2 ــ بنيات الخدمات الطبية ونواقصها:

يُعبّر عن وجهة نظر العاملين الطبيين، حول تنظيم الخدمات الصحية، بطريقة متقاربة : إنهم يرثون لنقص الوسائل المادية، والمختبرات والتجهيزات (سيارات، بنزين) الخ.. التي تعترض كل محاولة للتعميم الطبي، ولا تسمح بالوصول إلى جماعات السكان المعوزين ومحلاتهم. وهؤلاء بدورهم يجدون صعوبات كبيرة تعترض وصولهم إلى المستوصفات أو المراكز الطبية (رداءة الجو وحالة الطرق، مواسم الزراعات، والعمل المتواصل بالحقول). إن تنظيم مشاريع للتربية الصحية، خصوصاً بالنسبة للأمهات، يجب أن يأخذ بعين الاعتبار هذه الظروف والصعوبات، ويبحث في عين المكان عن وسائل تجاوزها.

ساهم في ترجمة هذه الدراسة : عدنان الجزولي

ملحــق :

قضية الأرض من خلال حياة شاب قروي في السادسة والعشرين من عمره، اسمه كريم.

كريم. فلاح شاب، عمره 26 سنة
قضى ثماني سنوات بالمدرسة

يعمل بضيعة في بكارة.
يعيش بذْجينا، على بعد بضع كيلومترات

س : ما هي مهنة والدك ؟

ج : فلاح، ثلاث هكتارات ونصف

س : كيف حصل عليها ؟

ج : في إطار الإصلاح الزراعي، أعطتها له الدولة سنة 1950، يزرع فيها القمح، والذرة، والفول الخ...

س : هل كانت هناك نساء أخريات غير والدتك ؟

ج : لا، لم يتزوج بنساء أخريات، لقد ولدت له أربع بنات وثلاثة أولاد، وفقدت طفلين صغيرين. كنا تسعة ولكن سبعة هم الذين عاشوا، أنا الثاني من بينهم، وباستثناء البنت الكبيرة التي تسكن بابن حُميد، مازلنا كلنا نسكن مجتمعين بهذا الدوار، ثم أخت أخرى تسكن وحدها مع زوجها قربنا في الدوار. نحن الباقون نعيش في نفس الدار، أنا وإخوتي الآخرين المتزوجين مع أبنائنا، وأختي المطلقة وأبناؤها، وأبي وأمي وأخي الصغير بوعزة.

س : تعيشون كلكم في نفس المنزل ؟

• العائلة الموسّعة

ج : نعم، زوجتي غير راضية عن ذلك، كان بودها أن تعيش وحدها مع أبنائها، زوجة أخي كذلك غير راضية..

س : ولماذا تمكثون جميعا مع بعضكم البعض ؟

ج : ليست لدينا القدرة على تحمّل عبء، وبناء دار، وضمان القوت اليومي. لا أحد منا يمارس عملا عصريا ومنتظماً يمكّنه من الانفصال عن العائلة. مراراً تقع الشجارات، ولكننا نتحمّل ونشدّ أيدينا مع بعضنا، إننا مرغمون، كلنا نأتي بما نربحه للأب الذي يقرر كل شيء، هذه هي الوسيلة الوحيدة التي تساعدنا على العيش. لا أحد منا ارتقى أو نجح. أنا الوحيد الذي ذهب الى المدرسة، أما الآخرون من إخوتي فلم يصلوا إليها نهائيا.

س : لمــــاذا ؟

ج : لا أدري، حتى أنا الذي مكثت ثماني سنوات بالمدرسة، ماذا استفدت ؟ لازلت على ما كنت عليه. لم يكن بالسهل الذهاب إلى المدرسة، لقد كانت تبعد بخمس كيلومترات. كنا نغادر ذْجينا على السادسة صباحا حاملين معنا بعض الشاي والخبز، نتناوله في الغذاء بساحة المدرسة، كان ذلك صعبا وشاقاً. بعد ثماني سنوات غادرت المدرسة وأنا في مستوى المتوسط الأول، مللت من كثرة الرسوب فغادرتها، زيادة على أن أبي كان قد قرر تزويجي.

• الزواج المبكر للابن

س : لماذا قرر تزويجك في ذلك السن المبكر، كم كان عمرك بالضبط، آنذاك ؟

ج : 17 أو 18 سنة، قرر تزويجي لكي أتمكن من طلب قطعة من الأرض الجماعية. كانت الدولة آنذاك توزع أجزاء من الأرض التي تملكها الجماعة، وكان من الضروري أن أكون متزوجا لكي يكون لي حق فيها، وذلك ما فعله أبي. كل الشبان المتزوجين كان لهم الحق في الأرض مهما كان سنهم، وهكذا حصلت على هكتارين وقررت مغادرة المدرسة. والآن تستغل العائلة أرض أبي وقطعتي. إننا كثيرون، نكون عائلة كبيرة، وكل ما نحصل عليه من أرض وأجرة نعطيه للاب، إذا لم نفعل ذلك فليس بمقدورنا أن نعيش.

س : كم أنتم في المنزل ؟

ج : هناك أخي وزوجته وابناه، وزوجتي وأطفالنا الثلاثة وأنا، كذلك هناك أختي المطلقة وابنها وبوعزة أخونا الصغير (نسي أختيه الغير متزوجتين).

س : كم من حجرة بمنزلكم ؟

ج : أربعة

س : كيف تقتسمونها بينكم ؟

ج : أنا أسكن في حجرة، وأخي في أخرى، جدتي تسكن في ثالثة صحبة أختي وابنها، وأبي يسكن الحجرة الرابعة.
س : ما زالت جدتكم على قيد الحياة ؟
ج : نعم، وهي كبيرة السن، في الواقع هي التي تسير الأمور.
س : هل يذهب أطفالكم إلى المدرسة ؟
ج : لا، ليس بعد. نتمنى أن نتمكن في السنة القادمة من تسجيل الذين بلغوا السابعة. سيطرح ذلك بعض المشاكل، إذ أنهم سيُضطرون للمشي يوميا على الأقدام، ذهاباً وإيابا لقطع الخمس كيلومترات التي تفصلنا عن المدرسة كما فعلت أنا : وسينتهون بالرسوب ومغادرة الدراسة كما وقع لي، إذا لم تشيد مدرسة بالقرية، تصوروا أن كل من كانوا معي في المدرسة غادروها قبل قسم الشهادة الابتدائية. نفس الشيء سيتكرر بالنسبة لأبنائنا، إلا إذا شيدت مدرسة بالقرية وتم ضمان النقل إلى المدرسة. ولكنه غير وارد أن تتحسن هذه الظروف. نفس المشكل بالنسبة للمستشفى، إنه بعيد جداً مما يجعلنا نحن وأبناؤنا لا نذهب إليه أبداً. يجب الانتظار زهاء يوم بكامله إيجاد وسيلة نقل، هذا إذا كنتَ بالطبع في إمكانك أداء ثمنها، الشيء الذي لا يحدث إلا قليلا. إذن كما هو الحال بالنسبة للمدرسة، فأبنائي سوف لن يروا المستشفى. كما لو كان الزمان لا يتحرك.

مركز الاستثمار كرمز للتنمية المنفتحة

ولكن هناك فرق، إذ بينما وُلدت أنا خلال أيام الاستعمار، فإن أبنائي قد ولدوا في عهد الاستقلال. وهناك هذا المركز الذي كلف بناؤه الملايير. كان من الأحسن أن تشيد لنا مدرسة، مستشفى، وربما قاعة سينمائية ومكان للاجتماع فيما بيننا. كان من المفروض أن أجد عملا بهذا المركز. إنني أتقن القراءة والكتابة والحساب، كما أن بمستطاعي سياقة الجرار. نحن كثيرون في هذا الدوار، لا أحد منا يعمل بالمركز. إذ أن هذا الأخير يجلب كل عماله من سيدي قاسم وسيدي سليمان وتطوان، من كل مكان إلا من هذه الناحية. ليس لنا مستقبل حتى هنا. إنني مُجبر رغم ثماني سنوات بالمدرسة أن أقوم بعمل لا يتطلب أي تكوين، عمل بدون ضمان للمستقبل وبدون أي حظ في الارتقاء والتطور.
س : وما هو العمل الذي تقوم به ؟
ج : فيما عدا حرث القطع الأرضية التي نملكها، فإن كلًا منا يحاول إيجاد عمل مأجور في الضيعات الأخرى. وهذا ما أقوم به طوال السنة. إننا نعمل ما في مستطاعنا، ولكن الأجر لا يتحسن بينما الأثمان لا تكف عن الارتفاع. والأدهى من ذلك هو أننا لا ندري ما يأتي به الغد، فإذا مرضتَ قُضي عليك ويجب أن تنتظر عودة صحتك لتبدأ من جديد بدون تعويض أو ضمان للمستقبل.

الفيضانات والفقر وضرورة المحافظة على العائلة الموسعة ومضاعفة أفرادها.

من هنا تأتي ضرورة العائلة الكبيرة، على الأقل إذا مرض، ففي مستطاع الاخر أن يكفل معيشة الآخرين. فمردود الأرض قليل وغير ثابت : هذه السنة مثلا أغرق الفيضان قطعة الأرض التي[1] يمتلكها أبي، فأتلف محصولها. آنذاك لا يبقى إلا العمل بضيعات الآخرين. الأجر جامد والعمل غير دائم، يجب التنقيب عليه باستمرار وتتبع أخبار أماكنه. هنا في دُجينا المواصلات صعبة، ويجب علينا الانتقال إلى مكان العمل بعيداً. نحن مرغمين على المكوث مجتمعين رغم المشاكل التي تطرح، ورغم كل الشجارات. إن عائلة صغيرة لا يمكنها العيش ومجابهة هذه الظروف الصعبة. يجب أن نكون كثاراً لكي نتمكن من العيش.
س : كم من طفل تريد أن يكون لك ؟
ج : مرحبا بكل طفل يولد. بدون مستشفى حظوظهم في الحياة ضعيفة. لو كان لأمي ابن واحد فقط لما استطاع أن يدبر أمر ويواجه حاجيات العائلة، بينما الآن، وبثلاثة أبناء، فإن أبي متأكد من أن تكاثف جهودنا يضمن لنا الحد الأدنى من العيش والمحافظة على البقاء.

هوامش

1) نشرت نتائج هذا البحث في مطبوع لمنظمة اليونسكو تحت عنوان :
«Etudes de cas socio-culturels pour l'éducation en matière de population au Maroc au Perou, au Rwanda et en Republique Unie de Tanzanie» - UNESCO 1981 - ED. 81WS-59

2) أية قراءة ولو سطحية لتاريخ المغرب تعطي للقارئ فكرة واضحة عن الطبيعة الصعبة للعلاقة بين السلطة المركزية والمواطنين في القبائل أو المدن. وعلى سبيل المثال فإن الفكرة المحورية التي تبلور من قراءات لكتاب « الاستقصا » لأخبار دول المغرب الأقصى للأستاذ جعفر الناصري وهو مرجع كلاسيكي معروف، هو العنف الذي يطبع ويقيد العلاقة بين « المخزن » والسكان. وهناك أمثال شعبية كثيرة تبرز لنا هذه الظاهرة ومنها : — المخزن جابر ولا رعية فاسدة.

— جوج الله يحيك منهم : البحر والمخزن

كما أن هناك أقوالا كثيرة حول القاضي كممثل للمخزن، تحمل نظرة سلبية إليه، منها :

— إذا كان القاضي خصيمك رقد رسومك

3) السكان القرويون، حسب الإحصاء العام لسنة 1971، منطقة الشمال ـ الغربي، مديرية الإحصاء 1973 الصفحة 27

4) Monographie succincte de la subdivision agricole de sidi slimane. Office régional de Mise en valeur Agricole du Gharb. service de la porduction Agricole. subdivision de Sidi Slimane 31/10/78. p.5.

5) Ministère de l'intérieur : Monographie. Cercle de Souk EL Arbaa du Gharb, mars 1977.

6) ORMVAG : Subdivision de sidi slimane : Monographie de la Subdivision 31-10-1978.

7) Triki Hamid et Rosenberg B : Famines et Epidemies au Maroc au XVI et XVII siècle. Hespéris. Vol XIV et XV. 1974.

8) Radi A.: Adaptation de la famille marocaine au changement social danale Maroc urbain. (BESM) 135 p.22

- Voir aussi. El Belghiti M.: les relations féminines et le 'statut de la famme dans la famille rurale dans trois village de la tossaout, BESM 114. juillet-septembre 1969.

- Baron A.M. : «la famille Prolétarienne» in Regards sur le Protectorat Marocain. Faits et Idées, 1954, n° 20

- El Belghiti M.: la ségrégation des garçons et des filles à la compagne. BESM 120 - 121

---

1) Nain D.: La population rurale du Maroc. P.U.F. Paris 1970.

2) Source impôt agricole : cité par El Belghiti. A : Urbanisation et domination du monde rural : le cas d'Azrou. Thèse de Doctorat de 3e cycle en geographie, Université Toulouse-le-Mirail, 1978.

3) M. El Belghiti, les femmes dans le Maroc independant. thèse de 3e cycle en Sociologie.

4) نفس المرجع السابق.

5) F. Taillard : Le nationalisme Marocain